

THE.WHAT?
ذوات

الفتاوى ... وفقه الأزمة

مجلة . ثقافية . نصف شهرية
العدد ٧ . ٢٠١٥


مؤمنون
بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث



مجلة ثقافية إلكترونية نصف شهرية

تصدر عن مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»

العدد ٧ - ٢٠١٥



مجلة
ثقافية
إلكترونية
نصف شهرية

المشرف العام
د. أحمد فايز

رئيسة التحرير
سعيدة شريف

تدقيق لغوي
د. عبد السلام شرماط

تنفيذ
رنا علاونه

المراسلات:
تقاطع زنقة واد بهت وشارع فال ولد عمير، أكدال،
قرب مسجد بدر
الرباط، المغرب
ص.ب: ١٠٥٦٩
تلفون: ٠٠٢١٢٥٣٧٧٧٩٩٥٤
فاكس: ٠٠٢١٢٥٣٧٧٧٨٨٢٧
رئيسة تحرير مجلة "ذوات" الإلكترونية:
mag@thewhatnews.net
سكرتير تحرير مجلة "ذوات" الإلكترونية:
mag2@thewhatnews.net
www.mominoun.com





كلمة
هذا العدد

انتشرت الفتاوى في السنوات الأخيرة بشكل مخيف، وساد التوتر والفوضى في المجتمعات العربية الإسلامية، وأصبحت الفضائيات والإنترنت، ومواقع التواصل الاجتماعي، تنقل الغريب والشاذ من هذه الفتاوى، التي ترعب الإنسان أكثر مما تطمئنه، أو تفسر له ما استعصى عليه في أمور دينه وحياته، حيث أصبحنا أمام خطابات وفتاوى لا أول لها ولا آخر، يسفه ويكفر أصحابها بعضهم البعض، ويحطون من قيمة المرأة في المجتمع وفي الدين الإسلامي، الذي يتبرأ من كل تلك الأقاويل والأكاذيب، التي لا تستند على النص القرآني.

لم تعد الفتاوى في عصرنا حبيسة الكتب، بل أصبحت منتشرة كالنار في الهشيم، خاصة مع المد الأصولي، والتزمت والتطرف الذي تشهده المجتمعات العربية الإسلامية، والذي يفرز لنا بين الفينة والأخرى فتاوى غريبة عنا، وحتى عن ديننا، تؤثر على الإنسان بشكل مضاعف على هويته وذاته، ولم تعد الفتاوى حكرا على علماء وفقهاء أتقياء، بل أصبح كل من «هب ودب»، أو أصيب بحالة «تدين مفاجئ» يفتي في أمور الدنيا والآخرة، بهدف إثارة ضجة إعلامية، وليس إصلاح حال المسلمين والمجتمعات، من دون أية خلفية علمية أو دينية، والقنوات والمواقع، بدل وضع حد لهذا التسيب، أصبحت تشجعه وتسعى إلى نشره من أجل رفع نسب مشاهدتها.

وفي ظل هذا التسيب والفوضى، فإن الفتاوى على اختلاف أنواعها، تكشف عن الوضع المأزوم في المجتمعات العربية، وعن التخلف والتراجع، وعن الثقافة التي أصبحت سائدة في هذه المجتمعات التي فقدت البوصلة في كل شيء، ولا أدل على هذا من الفتاوى الهابطة من مثل «إرضاع الكبير»،

و«جهاد النكاح»، و«مواقعة الزوجة الميتة»، و«منع نوم المرأة بجانب الحائط أو سيرها وملامستها له، لأنه مذكر»، و«تحريم الدردشة بين المرأة والرجل عبر «فيسبوك»»، و«تحريم العمل مع أهل الكتاب»، و«تحريم عمل الرجل في مكان تتولى إدارته امرأة»، وغيرها من الفتاوى المثيرة للجدل، والتي أصبح لها رواد وأهل اختصاص، يحضون على الكراهية، والعنف، والإرهاب، في غياب أي رادع لمثل هذه الممارسات المشينة، التي تهدف بالأساس إلى إعاثة الفساد والفوضى، والتفرقة في المجتمعات، وتأجيج النعرات.

ما يحدث اليوم في المجتمعات العربية الإسلامية من هياج، جراء هذه الفتاوى، يستدعي القراءة والتأمل، والسعي لتجاوز هذا الوضع بالعقل والعلم، وهو ما قامت به مجلة «ذوات» الثقافية نصف الشهرية، الصادرة عن مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»، في عددها السابع، حيث خصصت ملفا لموضوع «الفتاوى.. وفقه الأزمة»، أعدته الزميلة الإعلامية منى شكري من الأردن، يُعاين فيه مجموعة من الباحثين العرب واقع الفتاوى السريعة والشاذة؛ أسبابها وحيثياتها وخطورتها، وعلى رأسهم الكاتب والباحث السوري المتخصص في الفكر السياسي، جاد عبد الكريم الجباعي، بمقال حول «الفتاوى.. وفقه الأزمة»، والكاتب الأردني والباحث في الفكر الإسلامي، بسام ناصر بمقال «نحو فتاوى شرعية تبشر بالدين ولا تنفر منه»، والباحثة الأردنية في الخطاب الإسلامي الديني وقضايا المرأة، دعاء فينو بمقال بعنوان «ليس انتقاصا من المرأة بل اغتيال للحق الرباني!»، والخبير في الاتصال والإعلام الأردني عصام سليمان الموسى، بمقال يحمل عنوان «أخطر فتوى دينية: تجهيل الشعب العربي أربعة قرون».

ويتضمن الملف أيضا حوارا مع أستاذ الفقه وأصوله بكلية الشريعة في الجامعة الأردنية الدكتور عبدالرحمن الكيلاني، يحدد فيه الأصل في المفتي الذي يجب أن يكون عالماً للأمة كلها بمختلف فئاتها واتجاهاتها وانتماءاتها الفرعية، وأن تكون فتاواه مبنية وفق ما توجبه الأدلة الشرعية لا وفق ما تقتضيه إملاءات السلطة السياسية، ويحذر من التعجل في الفتوى دون استكمال شروطها وضوابطها، لأن ذلك برأيه «اجتراء على الله وسبب لإفساد المجتمعات ونشر الفتنة فيها»، إضافة إلى بيبليوغرافيا لملف العدد، تقدم خدمة للقارئ العربي، وتطلعه على بعض عناوين الكتب التي تناولت موضوع الفتاوى.

ويتضمن باب «رأي ذوات» مقالا للكاتب الجزائري السعيد معطوب بعنوان «هل يعرف التطرف نبي الإسلام؟»، ومقالين، أحدهما للكاتب والناقد المغربي صدوق نورالدين بعنوان «محنة المثقف في المغرب الحديث»، والثاني للكاتب والناقد المغربي عزيز العرباوي بعنوان «العولمة وأثرها على اللغة العربية»، فيما يشتمل باب «ثقافة وفنون» على مقالين: الأول للكاتب والمترجم اليمني رياض حمادي حول «توظيف الدين في رواية الواحد»، والثاني للفنان التشكيلي المغربي والناقد حسان بورقية حول الفنان خليل غريب.

ويقدم باب «حوار ذوات» لقاء مع الباحث التونسي وأستاذ الفلسفة، حمادي بن جاء بالله، الذي يتحدث عن العقلانية العلمية والحرية، ويعتبرهما ركيزتي الحداثة العصرية، ويشير الكاتب والشاعر المغربي المتخصص في التربية، أحمد العمراوي، في الحلقة الثالثة من دراسته حول «التربية وتغيير مسار الشخص»، إلى التلميذ والمشروع الشخصي للدراسة والحياة، وذلك في باب «تربية وتعليم».

أما باب «سؤال ذوات»، فيقدم آراء الباحثين والكتاب العرب حول تأثير السينما على المجتمعات العربية، فيما يقدم الإعلامي المغربي نزار الفراوي قراءة في كتاب «الأديان الإبراهيمية.. قضايا الراهن» للباحث التونسي عزالدين عناية، وذلك في باب «كتب»، والذي يتضمن أيضا تقديما لبعض الإصدارات الجديدة لمؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث».

سعيدة شريف

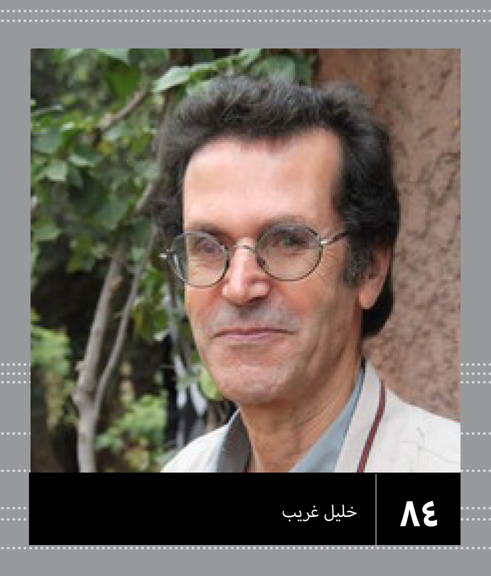
في الداخل ...



٨ - ٦٥ ملف العدد: الفتاوى ... وفقد الأزمة

ملف العدد:

الفتاوى ... وفقد الأزمة

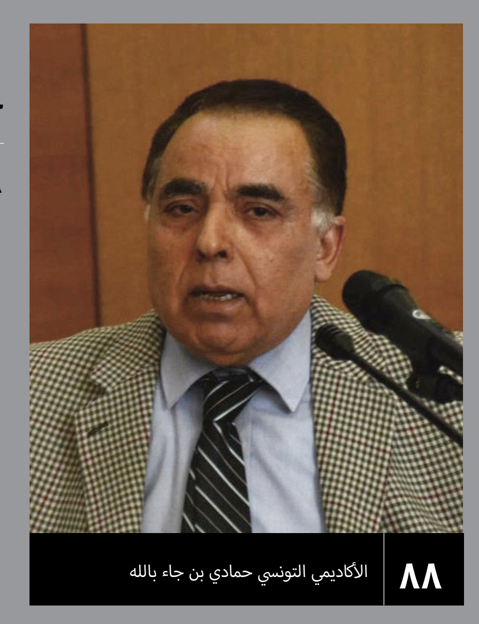


٨٤ خليل غريب

ثقافة وفنون:

THE WHAT? ذوات





حوار ذوات:

سؤال ذوات:



تربية وتعليم:

في كل عدد:

ملف العدد

الفتاوى ...
وفقه الأزمة





إعداد: منى شكري
باحثة وإعلامية أردنية



الفتاوى السريعة والشاذة: تجهيل وتكريس للتطرف وانتقاص من المرأة

«إرضاع الكبير»، «جهاد النكاح»، «مواقعة الزوجة الميتة»، «منع نوم المرأة بجانب الحائط أو سيرها وملامستها له لأنه مذكر»، «تحريم الدردشة بين المرأة والرجل عبر «فيسبوك»»، «تحريم العمل مع أهل الكتاب»، «تحريم عمل الرجل في مكان تتولى إدارته امرأة»، «تحريم قيادة المرأة للسيارة».. هي عينات من قائمة طويلة لفتاوى انتشرت في الآونة الأخيرة، بعضها يحرض على الكراهية والتمييز أو يسهم في إفراز بيئة خصبة لنمو التطرف، وأخرى يرى بعض الباحثين والمختصين أنها تكرس الجهل ولا تتماشى مع العصر واحتياجات الناس والتيسير عليهم، وفتاوى تستهدف إرضاء السلطة أو تياراً سياسياً بعينه، أو حتى المزاج الشعبي كما يرى آخرون.



المتتبع لمشهد الفتاوى في السنوات الأخيرة، لاسيما مع تنامي ثورة المعلومات والاتصالات، يلحظ مشهداً مضطرباً في إصدار الفتاوى، كما يظهر في سرعة تناقل «الفتاوى الشاذة منها»، لتشتعل كالنار في الهشيم، منطلقة كسهم يخترق الذهنية المجتمعية، لتحدث إرباكاً في عقلية المتلقي بين مؤيد ومتندّر، لتجد من يتلقفها ويسهم في الترويج لها رغم أن غالبيتها يفتقد لإعمال العقل!

ودرجت في السنوات الأخيرة «ظاهرة» الفتاوى السريعة التي وجدت في الشبكة العنكبوتية فضاء رحباً ومكاناً خصباً، تصل فيه لشرائح وفئات مختلفة، وتسابق من أوكلوا لأنفسهم مهمة التصدي للفتوى و«التحريم» و«التحليل»، وإصدار فتاوى متنوعة قد تسهم في تكريس التطرف، وتعميق الجهل ونشره، والانتقاص من الأقليات أو من حق المرأة والنظر إليها نظرة دونية.

ويُعاين هذا الملف المعنون بـ «الفتاوى السريعة ودورها في التجهيل وتكريس التطرف والانتقاص من المرأة» واقع الفتاوى السريعة والشاذة؛ أسبابها وحيثياتها وخطورتها.

إن الجديد في هذا العصر هو أن هذه الفتاوى لم تعد حبيسة كتب المذهب يقرأها أحد التلاميذ أو العابرون من طلبة العلم أو من هبت عليه هبة «تدين» مفاجئ، أو يرددها أحد المشايخ أو الدعاة أو الوعاظ الذين يودون لو طرزوا كلماتهم بكل ما هو بديع خلّاب من قصص الصالحين والأولياء، وفق الباحثة الأردنية في الخطاب الإسلامي الديني وقضايا المرأة الدكتورة دعاء فينو، بل غدت «صنعة جديدة» لكل وجه يطل عبر شبكات التواصل، ليحدث «فرقعة» إلكترونية لا ينتظر فيها دوراً رسمياً أو خطابة في مسجد أو حفل أو قناة فضائية، ليسجل حضوراً إعلامياً صاخباً.

نبه الكاتب الأردني والباحث في الفكر الإسلامي بسام ناصر في ورقته المعنونة بـ«نحو فتاوى شرعية تبشر بالدين ولا تنفر منه»، إلى أن خطورة وحساسية الفتوى في حياة الناس وواقع المجتمعات تتبدى بما ينتج عنها ويترتب عليها من مواقف وأفعال وسلوكيات، في الأحوال الشخصية، والعلاقات المجتمعية، والمعاملات التجارية، ولعل من أظهر ذلك وأوضحه، مسالك توظيف الفتوى الدينية في ميادين العمل السياسي، والأخطر من ذلك كله، استباحة الدماء المعصومة بفتاوى دينية!



وبَيّن ناصر الأسباب المفضية إلى الفوضى في الفتوى منها تصدي غير المؤهلين للوعظ الديني والإفتاء الشرعي، وعلو صوت الفتاوى المتشددة والشاذة بحجة سد الذرائع، وانتشار حمى الإفتاء في الفضائيات والمنابر الإعلامية، إلى جانب غياب أو تغييب المرجعيات الدينية، القادرة على ضبط مسارات الفتاوى، وضبط إيقاعاتها، وتحظى في الوقت نفسه باحترام المسلمين وتقديرهم، ما يحملهم على الالتزام بتوجيهاتها، والتقيد بالفتاوى الصادرة عنها، كل ذلك ساهم، وفق ناصر، في تشتيت وعي المتلقي.

كما أن التصدي لمعالجة ظاهرة فوضوية الفتوى، بما تحمله في ركابها من غرائب الفتاوى وشواذها، وما تتركه من آثار سلبية، وتداعيات قلقة على المجتمعات الإسلامية، يتطلب، وفق ما أجمع عليه كل من فينو وناصر، إشاعة ثقافة العلم الشرعي، والأخذ على أيدي المتطفلين وغير المؤهلين، ومنعهم من التصدي لإصدار الفتاوى، سيما أولئك الذي ينصبون أنفسهم «حراسا وأوصياء» يطلون على المشاهد عبر الفضائيات، والذين يتناقلون بدورهم فتاواهم عبر مواقع التواصل الاجتماعي أيضا، الأمر الذي

يستدعي حسن اختيار من يتولى الإفتاء في تلك البرامج من العلماء المتقنين الراسخين في الفقه الإسلامي، حتى تظل للفتوى مكانتها ودورها البنائي الفاعل في نفوس المسلمين وفي مجتمعاتهم بكل مناحيها وجوانبها المختلفة.

> الفتاوى لم تعد حبيسة كتب المذهب بل غدت «صنعة جديدة» لكل وجه يطل عبر شبكات التواصل، ليحدث «فرقعة» إلكترونية

وعودة إلى مشاركة الباحثة فينو، فقد تتبعت في ورقتها التي حملت عنوان «ليس انتقاصاً من المرأة بل اغتيال للحق الرباني!»، المرأة في الفتاوى، منوهة إلى أن المتابع للخطاب العربي الإسلامي في شؤون المرأة، سيجد أن الفتاوى ــ تاريخياً ــ كانت ولم تزل المحددة لحرية المرأة وفاعليتها في المجتمع، فمنذ فتوى الشيخ المناوي بـ «عورة صوت المرأة»، بحسب فينو، احتلت نصف المجتمع وجسدها نصيباً كبيراً من تلك الفتاوى السريعة التي تكرس النظرة الدونية لها، وتتعامل معها على أنها «عورة» وفق صورة ما زالت متلبسة للذهنية العربية والعقل الذكوري،

يلخصها الشيخ عبد الحليم أبو شقة بجملة واحدة: «عندما تغيب النصوص وراء آراء الرجال»!.

وبينت الباحثة أن الفتاوى المثيرة للجدل من شيوخ أكثر إثارة للجدل وفي توقيت سياسي الأكثر هيجاناً وإثارة للجدل أيضاً، إن كان ربيعاً شبابياً، أو مشروعاً استعمارياً، أو رجعة إلى عصور التخلف الأكثر همجية، أو صحوات إسلامية، هي باختصار زمن الفوضى السياسية في العالم العربي الذي يحضر فيه الدم ولا تكاد تعرف فيه حقيقة أو حقا!

ومضت تدلل على رأيها في أن المرأة (الجسد) كانت حاضرة في الميادين، فطلبت لها فئة أن تغيب «فصدرت فتاوى بتحريم وجودها في الميادين»، وبرزت فتاوى منع الاختلاط خوفاً على المرأة من الاغتصاب والتحرش الجنسي- والذي لم تسلم منه بحال! كما برزت فتاوى تيسر لها هذا الحضور، وأنه من المشاركة السياسية التي حث عليها الإسلام!

وبعنوان «الفتاوى.. وفقه الأزمة» أوضح الكاتب والباحث السوري جاد الكريم الجباعي أن الفتاوى، على اختلاف أنواعها، تكشف وجهاً من وجوه الثقافة السائدة في المجتمعات الإسلامية عامة والعربية منها خاصة، لا سيما أن الفتاوى تتصل بشؤون الحياة اليومية من عقائد وعبادات ومعاملات، ما يتفق مع تعريف الثقافة بأنها ممارسة اجتماعية وأخلاقية، بالمعنى الواسع للكلمتين.

تدل فوضى الفتاوى وتدفقها وتعارضها على «ثقافة مأزومة»، تفاقمت أزمتها منذ منعرج الألفية الثالثة

ونوه الجباعي إلى أنه لا جدوى من نقد الفتاوى من دون نقد الأوضاع التي تنتج الحاجة إليها، وفي مقدمها نزاع الهويات والحروب الأهلية المتفجرة هنا والكامنة هناك، ونقد الجماعات والمجتمعات التي لا تزال تعيش خارج العصر.

ومن أبرز آثار الفتاوى في الذات أمران، وفق الجباعي، أولهما يتعلق بحرية الضمير واستقلال الوجدان، إذ يتوسط «العلماء» المكرسون بين الإنسان وربه، على زعمهم أنهم أدرى بمقاصد الشرع، مع أنهم فئة «متبطلة معظمها من الجهلة والدراويش»، ويتعلق الثاني بالمعرفة، إذ المبدأ الرئيس في الإفتاء هو قياس الغائب على الشاهد، والغائب هنا هو الحدث الواقعي والقضية الواقعية والظاهرة الواقعية.. والشاهد هو النصوص التي يجتهد العلماء في ليّ أعناقها وتقويلها ما يناسب مصالحهم ومصالح أرباب نعمتهم، فما تسمى مقاصد الشرع هي مقاصدهم ومقاصد هؤلاء.

وإلى ذلك، تدل فوضى الفتاوى وتدفقها وتعارضها، بحسب رأي الجباعي على «ثقافة مأزومة»، تفاقمت أزمتها منذ منعرج الألفية الثالثة، ورواج مقولة «صراع الحضارات» واعتبار الإسلام مصدراً للتعصب والأصولية والإرهاب. فهي، من هذه الزاوية، محاولة وهمية للدفاع عن الذات، إلى جانب محاولات أخرى مشابهة. ومن الجانب الآخر، هي محاولة لتعزيز الهوية وإعادة إنتاج العصبية.

أما الخبير الأردني في الاتصال والإعلام أ. د. عصام الموسى، فتطرق في ورقته المعنونة بـ «أخطر فتوى دينية: تجهيل الشعب العربي أربعة قرون» إلى فتوى صدرت عن رجال الدين تسببت في تأخر دخول المطبعة إلى الدولة العثمانية حتى الثلث الأول من القرن الثامن عشر.



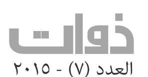
ويشير الموسى إلى أن رجال الدين أفتوا، وفق ما ذكر أديب مروة في كتابه «الصحافة العربية: نشأتها وتطورها»، بأن المطبعة «رجس من أعمال الشيطان»!.

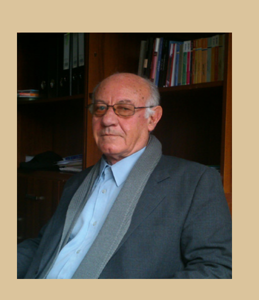
ويلفت إلى أن صدور مثل هذه الفتوى عائد إلى رغبة السلطة في ممارسة احتكار المعرفة، والسيطرة على العقول؛ فالمعرفة بحد ذاتها قوة يمكن أن تتحدى السلطة؛ لأنها تبدد الجهل وتعرّف الناس بحقوقهم ليطالبوا بها. وهذا ما حصل مع العرب، فحين طالب مفكروهم وصحفيوهم بالاستقلال ونيل حقوقهم، أقدم جمال باشا السفاح حاكم سوريا التركي في أيار (مايو) عام ١٩١٦ على إعدام ثلاثة وثلاثين رجلاً، لا فرق بين مسلم ومسيحي، وعلقهم على أعواد المشانق في ساحتي الشهداء في دمشق وبيروت، وكان من بينهم ستة عشر صحفياً، الأمر الذي عجل في إعلان الثورة العربية الكبرى مباشرة بعد شهر واحد إثر تلك الحادثة الأليمة التي كشفت عن نوايا الأتراك الحقيقية.

ويمضي الموسى في حديثه قائلاً: لقد خضعت البلاد العربية لحكم العثمانيين مدة أربعمائة عام (١٥١٦-١٩١٨). وبينما كانت أوروبا ترتدي أثواب المعرفة التي جاءت بها المطابع، وزاد عددها في أرجاء مدنها عن ٢٥٠٠ مطبعة قبل نهاية القرن الخامس عشر، تنشر في أنحائها حركات التنوير والإصلاح الديني والنهضة العلمية والصناعية والفكرية؛ نجد بالمقابل السلطة العثمانية، ممثلة بشيخ الإسلام، تصدر فتوى خطيرة تكرس الجهل. وقد عزا العثمانيون صدور الفتوى لسببين: الأول، تمثل في موقف رجال الدين وخشيتهم من حدوث اضطرابات «في الدولة العثمانية...لأنهم كانوا يعتقدون أن أمن الدولة العام ربما يضطرب»؛ والثاني، بسبب الضغوط التي مارستها فئة الوراقين العاملين بالنسخ والخط الذين «أشاعوا أن طبع الكتب يتناقض مع الدين»، وذلك للحفاظ على مصدر رزقهم.

وتابع الموسى مع مطلع القرن الثامن عشر، أدرك المتنورون العثمانيون أهمية الطباعة ودورها في نشر المعرفة، وذلك حين لاحظوا نهضة أوروبا وتقدمها في جميع المجالات، فصدرت فتوى ألغت الأولى، وأفتى شيخ الإسلام يكيشهر لي عبدالله أفندي أثناء مشيخته (١٧١٨-١٧٣٠) بجواز افتتاح مطبعة تطبع بالحرف العربي في إسطنبول. وجاءت الفتوى نتيجة ضغوط من الصدر الأعظم إبراهيم باشا الذي كان راغباً مع السلطان أحمد الثالث (١٧١٧-١٧٣٠) في إدخال إصلاحات للبلاد، حيث أجازت الفتوى طباعة الكتب ما عدا تلك المتعلقة بالشريعة والفقه الإسلامي. بعد ذلك قام الصدر الأعظم، الذي كان متحمساً للمشروع، بإقناع السلطان أحمد الثالث الذي وافق بدوره على إصدار فرمان (خط همايون) يسمح بإنشاء المطبعة في تموز ١٧٢٧. وصدر ترخيص المطبعة باسم إبراهيم متفرقة وسعيد شلبي قبل أن يستقل متفرقة بها. وهكذا عُدّ متفرقة، وهو مجري الأصل، مؤسس أول مطبعة عربية في إسطنبول.

كما عرج الموسى، في ورقته، للثورات التي حدثت في التاريخ الإنساني في مضمار الإعلام والاتصال، والتي أحدثت تغييرات جسيمة في حياة البشر، وقادت كل واحدة إلى توسيع دائرة المعرفة، مبيناً أن قدوم الإنترنت أدخل الناس في عصر جديد هو عصر الاتصال الرقمي الذي قاد لثورة اتصالية عملت على تمكين الإنسان العادي وتقوية مركزه من خلال استخدام قنوات اتصال تبادلية، لا تخضع لرقابة السلطة. ومثلما كان لهذه الثورة الرقمية نتائج إيجابية، أهمها ظهور الصحفي المواطن، وتقديم وجهة نظر شعبية، كان للرقمنة جوانب سلبية، أهمها انتشار الأخبار التي تفتقر إلى المصداقية، وانتشار الشائعات، ومنها ما يتعلق بسهولة تداول الفتاوى السريعة.





جاد الكريم الجباعي
كاتب وباحث سوري
متخصص في الفكر السياسي

الفتاوى...
وفقه الأزمة

تدفقت الفتاوى في السنوات الأخيرة بشكل مهول، ما أشاع التوتر والفوضى في المجتمعات العربية الإسلامية، وذلك لأن للفتاوى أثراً مزدوجاً: أثراً في الهوية، وأثراً في الذات والذاتية؛ إذ يدل تواتر الفتاوى على حساسية «السنة» أو الأرثوذكسية، إزاء أي حدث جديد وأي فكر جديد، فهي منظوراً إليها من هذا الوجه، آلية تسييج السنة وضم نسيجها، وتنقيتها من البدع، وإن كانت تصدر عن مذاهب متعارضة، هي هويات متعارضة، يسفّه بعضها بعضاً، ويكفر بعضها بعضاً. الفتاوى من هذا الوجه مظهر من مظاهر ثقافة الاستبداد، والاستبداد، بالتعريف، هو احتكار السلطة واحتكار الحقيقة وامتياز فرض مبادئ الحق والأخلاق على المختلفين.

تكشف الفتاوى، على اختلاف أنواعها، وجهاً من وجوه الثقافة السائدة في المجتمعات الإسلامية عامة والعربية منها خاصة، لا سيما أن الفتاوى تتصل بشؤون الحياة اليومية من عقائد وعبادات ومعاملات، ما يتفق مع تعريف الثقافة بأنها «ممارسة اجتماعية وأخلاقية، بالمعنى الواسع للكلمتين. فالعلاقات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية بين الأفراد والجماعات، أو «المجتمعات الصغيرة»، في أي مجتمع، هي صورة الحياة الاجتماعية؛ والثقافة هي مضمون هذه الصورة، بصفتها نظاماً/ أنظمة للمعاني والرموز والقيم، تحدد كيفية التفكير والإدراك والتقدير والعمل»[١]. لذلك لا نرى في الفتاوى الهابطة، سوى وجه من وجوه الفتوى، ولا نرى وجهاً لإدانة الفتاوى الهابطة والمسفَّة والباعثة على التقزز، كإرضاع الكبير وجهاد النكاح ومواقعة الزوجة الميتة للتو، والتبرك ببول النبي وروث ناقته... أو التي تحرض على الكراهية، وتبرر العنف والإرهاب أو تحض عليهما، كفتاوى الجهاد، لتبرير غيرها من الفتاوى، والسكوت على الإطار المرجعي المشترك بين هذه جميعاً؛ أعني «السنة» أو الأرثوذكسية، التي جعلت من الدين الروحي، أو من الدين الذي يجري فيه روح إنساني قابل للتحقق، مذهباً دنيوياً، أصولياً، هو لحمة العصبية وموئل التعصب.
فلا جدوى من نقد الفتاوى من دون نقد الأوضاع التي تنتج الحاجة إلى فتاوى، وفي مقدمها نزاع الهويات والحروب الأهلية المتفجرة هنا والكامنة هناك، ونقد الجماعات والمجتمعات التي لا تزال تعيش خارج العصر.

للفتاوى أثرٌ مزدوجٌ: أثرٌ في الهوية، وأثرٌ في الذات والذاتية؛ إذ يدل تواتر الفتاوى على حساسية «السنة» أو الأرثوذكسية، إزاء أي حدث جديد وأي فكر جديد

الثقافة أول رأس مال إنساني[٢] يتعين به شكل الوجود الاجتماعي وعوامل نموه وانبساطه في المكان والزمان، في العالم وفي التاريخ، باعتبارهما وجهين للوجود الاجتماعي ذاته، والوجود بوجه عام. الوجود الاجتماعي ليس معطى طبيعياً، بل هو من إنتاج الإنسان نفسه. الثقافة هي شكل وجودنا الاجتماعي؛ ثقافتنا هي من نحن، ومن يمكن أن نكون. وهذا مناط اتصالها بالهوية من جهة، وبالذاتية، بما هي استقلال وحرية، من الجهة الثانية. ولما كانت الهوية، بمعناها المنطقي، التقليدي، تحيل على الوحدة والتجانس والانسجام والاتساق، فإن الذاتية تحيل على الاختلاف والتفاوت، والاختلاف هو شكل تعيُّن الحرية. بهذه الحيثية يتعيّن التوتر والتعارض بين الهوية الاجتماعية: الإثنية أو الدينية أو المذهبية أو الحزبية، وبين الذات الإنسانية، سواء كانت الهوية فردية أم جمعية. لذلك يمكن وصف جميع الفتاوى بأنها هووية (من الهوية).

ستحاول هذه المقاربة إلقاء بعض الضوء على هذا التوتر، من خلال فوضى الفتاوى وتدفقها في السنوات القليلة الماضية. ذلك لأن للفتاوى أثراً مزدوجاً: أثراً في الهوية، وأثراً في الذات والذاتية؛ إذ يدل تواتر الفتاوى على حساسية «السنة» أو الأرثوذكسية، إزاء أي حدث جديد وأي فكر جديد، فهي منظوراً إليها من هذا الوجه، آلية تسييج السنة وضم نسيجها، وتنقيتها من البدع، وإن كانت تصدر عن مذاهب متعارضة، هي هويات متعارضة، يسفِّه بعضها بعضاً، ويكفر بعضها بعضاً. الفتاوى من هذا الوجه مظهر من مظاهر ثقافة الاستبداد، والاستبداد، بالتعريف، هو احتكار السلطة واحتكار الحقيقة وامتياز فرض مبادئ الحق والأخلاق على المختلفين.

١- جاد الكريم الجباعي، رأس المال الثقافي، ورقة خلفية، المركز السوري لبحوث السياسات، ٢٠١٣
٢- إدغار موران، النهج، إنسانية البشرية، الهوية البشرية، ترجمة هناء صبحي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، أبوظبي، ٢٠٠٩، ص ص ٤٥ – ٤٦.



من أبرز آثار الفتاوى في الذات، أمران: يتعلق أولهما بحرية الضمير واستقلال الوجدان، إذ يتوسط «العلماء» المكرسون بين الإنسان وربه، على زعمهم أنهم أدرى بمقاصد الشرع، مع أنهم فئة متبطلة معظمها من الجهلة والدراويش، ويتعلق الثاني بالمعرفة، إذ المبدأ الرئيس في الإفتاء هو قياس الغائب على الشاهد، والغائب هنا هو الحدث الواقعي والقضية الواقعية والظاهرة الواقعية.. والشاهد هو النصوص التي يجتهد العلماء في ليّ أعناقها وتقويلها ما يناسب مصالحهم ومصالح أرباب نعمتهم، فما تسمى مقاصد الشرع هي مقاصدهم ومقاصد هؤلاء.

وإلى ذلك، تدل فوضى الفتاوى وتدفقها وتعارضها على ثقافة مأزومة، تفاقمت أزمتها منذ منعرج الألفية الثالثة، ورواج مقولة «صراع الحضارات» واعتبار الإسلام مصدراً للتعصب والأصولية والإرهاب. فهي، من هذه الزاوية، محاولة وهمية للدفاع عن الذات، إلى جانب محاولات أخرى مشابهة. ومن الجانب الآخر، هي محاولة لتعزيز الهوية وإعادة إنتاج العصبية. فإن الوقوف على تدفق الفتاوى والفتاوى المضادة يبين حرص «السلطان الثقافي» للأرثوذكسيات على تقييد الأفراد وضبط سلوكهم والهيمنة على عقولهم، علاوة على مظاهرة سلطان سياسي ما، حاكماً كان السلطان السياسي أم معارضاً. ففي عام ٢٠١٢ تنوعت الفتاوى الصادرة عن دار الإفتاء المصرية، على سبيل المثال، فبلغت نحو ٤٧١٨٠٨ فتوى، منها ما يزيد على ١١٦١١٥ فتوى شفهية، ونحو ٢٠٣٩٣٨ فتوى هاتفية، و١٥٠٢١٣ فتوى عن طريق الإنترنت، في حين بلغت الفتاوى الموثقة نحو ١٥٤٢ فتوى. وشملت الفتاوى كل ما يهم المسلم من أمور في مناحي حياته المختلفة، والأحداث الراهنة التي يمر بها العالم الإسلامي..[٣]. هذه فتاوى عام واحد، حسب تقرير دار الفتوى بمصر لعام ٢٠١٢، فما بالكم بالسنوات السابقة واللاحقة، وتعدد مراكز الفتوى في العالم الإسلامي وفي كل بلد من بلدانه، واختلاف مذاهبها، وتنطع كل من هب ودب لممارسة هذه السلطة؟!

في إزاء هذا السيل من الفتاوى، لا يملك المرء إلا أن يعتبرها مظهراً من مظاهر الحياة الثقافية، لأن نسبة عالية منها إجابات عن أسئلة نساء ورجال وشابات وشباب خاضعات وخاضعين بدرجات مختلفة لسلطة من يعتقدنهم أو يعتقدونهم علماء. فنحن إزاء سلطة مشيخية تعيد إنتاج هيمنتها الناعمة، ونظام سياسي، هنا وهناك، جرد الأفراد من حقوقهم المدنية والسياسية، فألغى أشخاصهم وأشخاصهن القانونية، ثم الإنسانية، وحوَّلهن وحولهم إلى مجرد رعايا أو قطعان بشرية (جماهير)، فانفكت العلاقة بين الحياة الخاصة لكل منهن أو منهم وبين الحياة العامة، وانكفأن وانكفؤوا إلى فضاءاتهم الخاصة وعصبياتهم التقليدية، وهو ما يفسر ازدياد الطلب على الفتاوى.

ليس هذا الارتهان الثقافي سوى تعبير عن اختلال التوازن بين الحياة الشخصية للفرد وبين حياتها أو حياته النوعية، وبعبارة أوضح اختلال العلاقة بين الفرد والجماعة والمجتمع. فلا يصح التفكير في الفرد على أنه مجرد كائن إنساني متموضع في المكان والزمان، أي على أنه مجرد فرد منعزلة أو منعزل، لأن وجود هذا الفرد نوع من الوهم أو حالة مرضية؛ فالقيم الشخصية الجديرة بالاعتبار، كحرية الإرادة والاستقلال الذاتي أو حرية الوجدان واستقلال الضمير والثقة والمحبة والعدالة والقدرة والتمكن والرفاهة والسعادة.. هي فضائل اجتماعية ومجتمعية وفردية في الوقت نفسه. كلما ازداد الفرد أو ازدادت انعزالاً، لا استقلالاً، يزداد أو تزداد توحشاً.

عملية تشييء الإنسان وتوحيشه وثيقة الصلة بعملية إعادة إنتاج رأس المال الثقافي في



٣- http://goo.gl/RAbDbV.

شروط متوحشة، نعني شروط التسلط والاستبداد وإهدار كرامة الإنسان والسيطرة على جميع مفاصل الحياة الاجتماعية، وتجاوز ذلك إلى السيطرة على الحيوات الشخصية للأفراد من قبل سلطة / سلطات كلّيانية أو شمولية وعقائد كليانية تجانسية. السيطرة على الحيوات الشخصية للأفراد إناثاً وذكوراً هي محاولة للسيطرة على الحياة النوعية، والحيلولة دون وعي الأفراد بكيانهن وكيانهم الإنساني، وبلوغ حياة إنسانية قوامها الحرية. ما يجعل الشرط الاجتماعي السياسي والثقافة التي تؤسسه متعارضاً على طول الخط مع الشرط الإنساني، وحائلاً دون تحققه.

إن نقدنا ينصب على الانشطار الوجودي الذي يعانيه كل فرد بين الكيان الفردي وشكل وجوده ووجودها الاجتماعي، أي بين الحياة الشخصية والحياة النوعية، والانشطار الجنسي هو الشكل الأعمق والأخطر من أشكال هذا الانشطار. شكل الوجود، الفردي: الاجتماعي والثقافي والسياسي والأخلاقي، هو ما يهمنا، لا مجرد الوجود، فهذا الأخير من

شأن الميتافيزيقا. كل فكر يتنكر لاختلاف الأفراد وخصوصية كل منهن وكل منهم، واختلاف الإناث عن الذكور والنساء عن الرجال خاصة، لا يستطيع اكتناه التوتر الإنساني في بنيته، فيركن إلى اتساقه الصوري، أو السوسيو - منطقي، بتعبير بورديو. هكذا معظم الاتجاهات الفكرية ذات الطابع السياقي، التي تنظر إلى الإنسان على أنه نتاج الشروط الموضوعية، من دون التتمة الماركسية التي تقول إن الإنسان هو من يصنع هذه الشروط، فتؤسس فكرة الفاعلة الاجتماعية والفاعل الاجتماعي. وما زلنا نعتقد أن الانفعالية (الذاتية) هي التي تؤسس الفاعلية (الموضوعية). ولا بأس من القول: إن الذاتية هي من تؤسس الموضوعية وتهيئ شروط إمكانها.

فلا يستقيم الحديث عن الفتاوى المختلفة، الهابطة وغير الهابطة، بمعزل عن هذه الحيثية أولاً، ومن دون إدراجها تحت مفهوم «السنة» أو الأرثوذكسية، ومفهوم العصبية الخلدوني، ثانياً، بحكم التلازم الضروري بين السنة والعصبية، بما في ذلك العصبية الحزبية، إذ تصدر معظم الفتاوى المتناقضة عن «علماء» الجماعات الإسلامية، السنية والشيعية، وبحكم الصراع السني الشيعي الذي يشق العالم الإسلامي، وليس من الحكمة تجاهله ومداراته، مع أنه صراع سياسي واضح المعالم، يتخذ من العقائد الدينية وسائل وأدوات تعبوية وتجييشية، عن طريق التلقين والإفتاء والحسبة في بعض الأحيان. ما يعني أن جميع الفتاوى تصدر عن سنة بعينها وتصب في طاحون العصبية، فتعزز أصوليتها وعدوانيتها إزاء الآخر المختلف، وإزاء المرأة.

والعصبيات جميعها عصبيات ذكورية، تتنكر لإنسانية المرأة؛ لذلك تنصب معظم الفتاوى على أجساد النساء، لا سيما فتاوى الجماعات الإسلامية، بدءاً بجماعة الإخوان المسلمين وصولاً إلى تنظيم دولة العراق والشام، مروراً بالجماعات السلفية الجهادية، في مغارب العالم الإسلامي ومشارقه، والتي لخصت برنامجها ورؤيتها في «إدارة التوحش»[٤].

يقول مصطفى حجازي: «المرأة هي أداة العصبية بامتياز، إنها أداة التزاوج الداخلي والمصاهرة مع الخارج. وفي الحالين، هي أداة تعزيز القوة العصبية الداخلية أو زيادة قوتها من خلال المصاهرة كوسيلة لإقامة الأحلاف. المرأة هي أكثر أعضاء الجماعة العصبية تعرضاً للقبول المشروط واختزال كيانها في وظائف ودلالات تخدم العصبية. هي أكثر الكيانات التي يمنع عليها أن تكون لذاتها، أو أن ترغب، أو تتطلع إلى ما وراء ما يناط بها من وظائف وأدوار. مفهوم المرأة في العصبية هي المرأة الأم (الرحم الذي ينجب والثدي الذي يرضع) أساساً. تلك هي الوظيفة التي تؤدي إلى مثلنتها وإسباغ الطهر والكمال عليها (أي سحب بعد الرغبة الذاتي منها مما يوازي دلالة الطهر) واختزالها في وظيفة العطاء/ الإرضاع الذي يبرد جوف الإنسان المعرض للقهر والهدر. ذلك ما لا يفتأ يكرره الشعراء الذين تعرضوا للاضطهاد من التعبير عن الحاجة إلى المرأة الثدي ودفء الحليب الذي يطفئ حرقة الاضطهاد. ذلك أن الاضطهاد يتخذ دلالة الفراغ الكياني وقلق الانفصال. المرأة الرحم / الثدي إذاً تقوم بوظيفة مهمة جداً لتوازن الجماعة العصبية التي تسقط عليها نفس دلالة الأم الرحم / الثدي، وتجعل الانتماء إليها مهدئاً ومطمئناً ومشبعاً في الآن عينه. بالطبع هناك إضافة إلى ذلك دور المرأة متعة المحارب. إلا أن الأهم من هذا الدور هو دورها الآخر المتمثل في إعادة إنتاج قيم العصبية. الأم في العصبية تربي

العصبيات جميعها عصبيات ذكورية، تتنكر لإنسانية المرأة؛ لذلك تنصب معظم الفتاوى على أجساد النساء، لا سيما فتاوى الجماعات الإسلامية

٤- راجع/ي، أبو بكر ناجي، إدارة التوحش، أخطر مرحلة ستمر بها الأمة، نشر خاص، بلا تاريخ، ومتاح على الشبكة.



ابنها الذكر على التسلط، وتربي ابنتها على الرضوخ والتبعية. تتمثل المرأة قيم العصبية وتعيد إنتاجها على حساب استلابها الذاتي، إذ لا ترى صورة أو كياناً لذاتها خارج هذه الوظائف والأدوار التي تسبغ عليها العصبية قيمة مبالغاً فيها. لا تجد المرأة قيمتها في كيانها الذاتي ومرجعيتها الداخلية، إنما في القيمة التي تسبَغ على وظائفها وأدوارها. في ذلك وحده تجد شرفها وتكتسبه، ومن خلاله تسبغ عليها العصبية دلالة الشرف الذي يجب أن يصان بالدم وحده»[٥].

العصبية المقواة بعقيدة دينية هي مبدأ الدولة في بلادنا حتى اليوم، وللدولة مؤسساتها الدينية، إن لم نقل إنها تحتكر المجال الديني، ولا تقبل بوجود أية دعوة مخالفة، وتسمي من لا يدينون بمذهبها ذميين وأقليات وغرباء... فحين لا ننظر إلى الدولة الحديثة (الدولة الوطنية) من منظور إثني (عرقي) أو ديني أو مذهبي، يمكن أن ننظر

٥- مصطفى حجازي، الإنسان المهدور، دراسة تحليلية نفسية اجتماعية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص ٦٠ وما بعدها

إلى الجماعات الإثنية والدينية والمذهبية وإلى الإثنيات والأديان والمذاهب من منظور الدولة السياسية الحديثة، لذلك لا ينصب نقدنا على الإثنيات والأديان والمذاهب، بل ينصب على الدولة القائمة بالفعل، هنا والآن، بصفتها «دولة ناقصة»، بتعبير كارل ماركس، تُكمِّل نقصها بدعاوى وادعاءات وتخرصات، لكي لا نقول بأوهام، إثنية ودينية ومذهبية. فإنه من الجليِّ الواضح لكل ذي بصر وبصيرة التفارق الصارخ والتضاد الصارخ بين الخطاب القومي أو الإسلامي أو الاشتراكي، ما فوق الوطني، وبين الممارسات الإثنية والعشائرية والدينية والمذهبية والطائفية ما دون الوطنية وما قبل المدنية. وإن الحديث عن دين الدولة ودين رئيسها وعن مصدر مقدس أو متعال للتشريع ليس من قبيل توظيف المقدس في السياسة، فقط، بل تلاعب بالمقدس ذاته من قبل من لا يراعون سوى مصالحهم الخاصة العمياء. في هذا السياق، لا تكفي الدعوة «العلمانية» إلى فصل الدين عن الدولة، بل يحتاج الأمر إلى تعيين الحد الفاصل - الواصل، بين المجتمع المدني والمجتمع السياسي والخروج من السديمية والاختلاط، حينئذ لا يكون للفكر الديني والفتاوى المختلفة والمتخالفة أية نتيجة سياسية، ويصير المواطن حراً في توجيه حياته الوجهة التي يريد، والمواطنة كذلك بالطبع.

ليست الهوية الوطنية «تنازلاً متبادلاً عن الهويات الخاصة»، كما يفترض بعضهم، بل توافق وتعاقد وتواثق على إنتاج هوية سياسية (وطنية) عامة لا تتعارض مع أي من «الهويات» الخاصة، ولا تنفيها

فالهوية الوطنية ليست «تنازلاً متبادلاً عن الهويات الخاصة»، كما يفترض بعضهم[٦]، بل توافق وتعاقد وتواثق على إنتاج هوية سياسية (وطنية) عامة لا تتعارض مع أي من «الهويات» الخاصة، ولا تنفيها، على افتراض أنها هويات، لا محمولات ومذاهب أو طرائق في التفكير والتأويل، دينية وغير دينية، لا تستنفد كينونة الفرد والجماعة، ولا تحددها تحديداً كلياً ونهائياً. لذلك نتفق مع القائل: يتبين النكوص عن التحضر في أية دولة، عندما تكون الجماعات مهددة بفقدان مكانتها الاجتماعية.. وإن وجود حدود (وحواجز) قوية بين الجماعات الراسخة والجماعات المستثناة من العضوية الكاملة في المجتمع قد يؤدي إلى استخدام متكرر للعنف وسيلة للتعبير عما تعانيه هذه الجماعات. وكذلك، عندما تنتهي العلاقات الصدامية بين الدول بالحرب، ينتج عن الصراع الجسدي تقويض لبعض ملامح الجسد المتحضر[٧]، أو نكوص الأفراد والجماعات إلى البدائية والهمجية، كما هي الحال في غير مكان من عالم العرب والمسلمين.

القهر والهدر هما العقبتان الأساسيتان في طريق الاستقلال الذاتي للفرد، والعقبتان الأساسيتان في طريق المواطنة، فهما نقيض تمكين الفرد واقتداره على اختيار ذاته وتحقيقها وسيطرته على مصيره، لأنهما علة التسلط والاستبداد، التي تظهر بوضوح في معلولها. فليس بوسع المتسلط والمستبد أن يكونا كذلك لولا هدر الإنسان/ الفرد وقهره. «فحين يحدث القهر في علاقة الاستبداد أو أية علاقة تسلط وإرغام، فإنه يترسخ ويعيد إنتاج الهدر ذاته، من خلال آليات الدفاع التي يلجأ إليها الإنسان المهدور في قهره، أبرزها التماهي بالمتسلط في سلوكه وأحكامه»[٨]. وقد بات مؤكداً أن علاقات التسلط والاستبداد هي العلاقات السائدة في البنى التقليدية (البطركية) الموازية لبنى السلطة

٦- راجع، برهان غليون، الطائفية ومسألة الأقليات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، الطبعة الثالثة، ٢٠١٢، ص ٢٧، وما بعدها. يذهب غليون إلى أن التساوي في فقدان الهوية شرط لقيام مساواة بلا هوية، وأن التخلي عن الذاتية أصبح قاعدة بناء الدولة العصرية.

٧- كرس شلنج، الجسد والنظرية الاجتماعية، ترجمة منى البحر ونجيب الحصادي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، ٢٠٠٩، ص ٢٢١

٨- مصطفى حجازي، المصدر السابق، ص ١٦

الشمولية والحاضنة لقهر الأفراد وهدر إنسانيتهم، بل إن العلاقات التي تشكلت بموجبها هذه البنى تاريخياً هي علاقات هدر وقهر، هي علاقات القوة والغلبة المؤسسة للسلطة، بوجه عام، وللاستتباع والاستبداد بوجه خاص، والتي كان الفقهاء بموجبها وعاظاً للسلاطين.

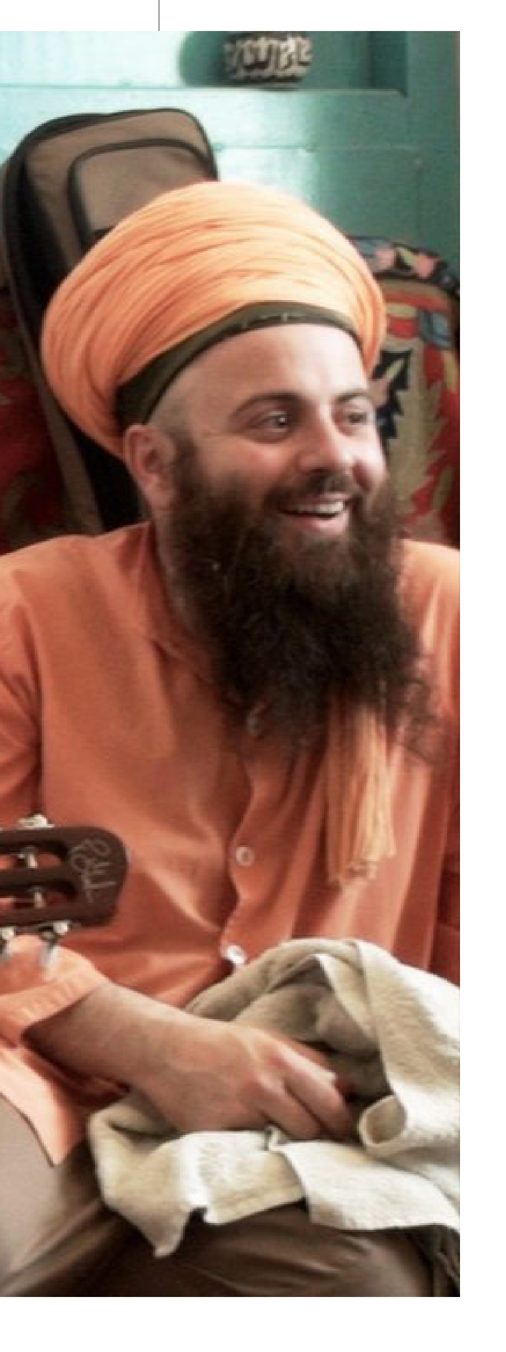
الهدر والقهر، على الصعيد السياسي، هما محتوى علاقات القوة العارية، التي تؤسس السلطة، وتعيِّن آليات السيطرة والهيمنة واستراتيجياتها، كما تتجلى في قوة مؤسسة الحرب والإرهاب (الجيش والمخابرات)، وهما، من ثم، محتوى السياسة بصفتها حرباً، أو امتداداً للحرب، (على عكس مأثور كلوزفتز القائل إن «الحرب امتداد للسياسة بوسائل أخرى»)، وما كان يمكن أن يكون الأمر كذلك، لولا نزاع الهويات وتدافعها، والفتاوى السريعة وغير السريعة من أبرز أدوات النزاع والتدافع هذين. فتاريخ الهدر والقهر لا ينفصل عن تاريخ الغزو والحرب. مع أننا يمكن أن نقع على علاقات هدر وقهر متفاوتة الشدة في علاقات القوة بين الأفراد والجماعات في أوقات السلم، وهذه لا تخرج عن القاعدة العامة، منظوراً إليها من زاوية ميكروسوسيولوجيا السلطة، كما يرى ميشيل فوكو، أي من كون السلطة نقاطاً صغيرة مبثوثة في ثنايا الجسم الاجتماعي، تتجمع على شكل سلاسل أو دوائر ومجموعات، وفق اتجاهات الأفراد ومصالحهم، أو من زاوية بسيكولوجية، كما في نزعات «السطوة والنرجسية والأنا المثالي»، كما بسطها مصطفى حجازي، أو من زاوية سوسيولوجية، كما في العلاقات البطريركية المؤسسة على الهدر والقهر، والتي تعيد إنتاجهما ثقافياً وسياسياً.

وفي جميع الأحوال، سوى المرضيِّة منها، نميل إلى «كلية القهر والهدر»، وجدلية الهدر والقهر التي مؤداها أن الهادر هو المهدور والقاهر هو المقهور، إذ لا يمكن هدر إنسانية الآخر إلا في حالتين: إما النكوص إلى ما دون الإنسانية، وإما «السمو» إلى ما فوق الإنسانية. وليس تنسيب الإنسانية، في أيديولوجيات التفوق، سوى نوع من التعويض الوهمي للحفاظ على التوازن النفسي لدى الهادر أو القاهر أو المتسلط أو الظالم أو الغالب. يتعلق الأمر هنا بتصور كل فرد عن ذاته بأنه نموذج الإنسان ومقياسه، وبتصور الجماعة عن ذاتها بأنها نموذج الإنسانية ومعيارها؛ أي إنه يتعلق بالنرجسية أو «الرؤية المرآتية»، وإلا فمن أين تأتي العصبية، ومن أين تأتي الفتاوى؟



بقلم: بسام ناصر
كاتب أردني وباحث في الفكر الإسلامي

نحو فتاوى شرعية تبشر بالدين ولا تنفر منه



كلما أثير الحديث حول «فوضوية» الفتوى، تعلل كثير من أهل العلم الشرعي بأن ذلك ناتج عن تطفل غير المؤهلين على ميادين العلم الشرعي، وتسور غير المتخصصين في العلوم الشرعية حائط الإفتاء الديني، ما أنتج حالة فوضى عارمة، اختلط فيها الحابل بالنابل، لكن المتابع للساحة الدينية، والراصد لنشاطات مشايخها ورموزها، يرى أن ثمة اختلافاً وتضارباً واضطراباً في الفتاوى الدينية بين علماء وفقهاء وطلبة علم كلهم من أهل العلم الشرعي، ومن المتخصصين في فنونه وعلومه المختلفة، وليسوا من الطارئين على ساحاته، ولا من المتطفلين على موائده، وهو ما يشي بأن ثمة أسباباً وعوامل عديدة لظاهرة «فوضوية» الفتوى، ولا يمكن حصرها بتطفل غير المتخصصين، وجرأة غير المؤهلين على اقتحام ساحاتها.

أحدثت ثورة المعلومات والاتصالات نقلات نوعية هائلة في حياتنا المعاصرة، وبات واضحاً أن عالمنا بعد تلك الثورة لم يعد هو عالم ما قبلها، فما كان يُعد في أزمان سابقة من خوارق العادات، أضحى بعد فتوحات الثورة واكتشافاتها أمراً مألوفاً يمكن حدوثه بوسائل متداولة، وما كان بعيداً لا يمكن الظفر به إلا بقطع مسافات شاسعة، أصبح طوع البنان بكبسة أزرار تُنقر على أجهزة التقنية الحديثة.

كان لتلك الثورة تأثيرات بالغة، وتداعيات عميقة على الفكر الإنساني، بإزالتها لكثير من الحواجز المنيعة، التي كانت تحول دون الحصول على المعلومات وتداولها، وبتقريبها لموارد الفكر والمعرفة، وتسهيل قراءتها والاطلاع عليها من خلال شبكة الإنترنت، لقد أحدثت تلك الثورة تحولات جذرية في حياة الناس تصدق عليها تماماً مقولة ابن خلدون «إن الأحوال إذا تبدلت جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد، ونشأة مستأنفة، وعالم مُحدَث»[١].

١- مقدمة ابن خلدون، ص: ٥٢

في ظل فتوحات تلك الثورة وما ألقت به في عالم الناس من اكتشافات واختراعات هائلة، وعلى رأسها الشبكة العنكبوتية بعوالمها المتنوعة الفسيحة، يليها البث الفضائي الذي ملأ الآفاق بقنواته المتكاثرة، ظهرت في مجال العمل الديني ظواهر سلبية[٢]، تمثلت في فوضوية الفتوى، وتصدي غير المؤهلين للوعظ الديني والإفتاء الشرعي، وعلو صوت الفتاوى المتشددة بتغليبها لسد الذرائع على فتحها، وانتشار حمى الإفتاء في الفضائيات والأوساط الدينية، فكيف يمكن التعاطي مع تلك الظواهر وتقديم مقاربات تجتهد في معالجتها وتقديم ما يسهم في التقليل من مفاسدها، والحد من شرورها على الحالة الدينية برمتها؟.

أهمية الفتوى وخطورتها

تكتسب الفتوى الشرعية أهميتها من كونها توقيعاً عن رب العالمين، يتضمن بيان الأحكام الشرعية التي كلف بها عباده؛ فالفتوى هي «الإخبار عن الحكم الشرعي لا على وجه الإلزام»[٣]، وفقهاء الإسلام هم الذين يقومون بمهمة بيان تلك الأحكام وتوضيحها للمستفتين، بما أتاهم الله من علم الشريعة ومعرفة أحكامها، والإحاطة بمقاصدها[٤].

مهمة بيان الأحكام والإخبار عنها، تولاها رب العالمين بنفسه، كما في قوله تعالى: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ..}[النساء: ١٢٧]، وقوله تعالى: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ..}[النساء: ١٧٦]. «وأول من قام بهذا المنصب الشريف سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين.. فكان يفتي عن الله بوحيه المبين..»، ثم تتابع عليه علماء الصحابة وفقهاؤهم، فكانوا «بين مكثر منها ومقل ومتوسط..»، وخلفهم عليها أئمة التابعين وعلماؤهم إلى أن وصل الحال إلى أئمة المذاهب المعروفين..[٥].

يقول الإمام النووي: «اعلم أن الإفتاء عظيم الخطر، كبير الموقع، كثير الفضل، لأن المفتي وارث الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وقائم بفرض الكفاية، لكنه معرض للخطأ، ولهذا قالوا المفتي موقع عن الله تعالى»[٦].

لذا، فإن العلماء يُنزلون المفتي منزلة عظيمة جليلة، فيجعلونه «القائم في الأمة مقام النبي صلى الله عليه وسلم»[٧] كما يقول الإمام أبو اسحاق الشاطبي، مورداً عدة أدلة على قوله السابق: «أحدها: النقل الشرعي في الحديث «العلماء ورثة الأنبياء..»، والثاني: أنه نائب عنه في تبليغ الأحكام لقوله: «ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب» وقال: «بلغوا عني ولو آية..»، والثالث: أن المفتي شارع من وجه لأن ما يبلغه من الشريعة إما منقول عن صاحبها، وإما مستنبط من المنقول، فالأول يكون فيه مبلغاً والثاني يكون فيه قائماً مقامه في إنشاء الأحكام..»[٨].

تبدى خطورة الفتوى في حياة الناس وواقع المجتمعات، بما ينتج عنها ويترتب عليها من مواقف وأفعال وسلوكيات، في الأحوال الشخصية، والعلاقات المجتمعية،

٢- مع عدم الغفلة بطبيعة الحال عن إيجابياتها الكثيرة في نشر العلم الشرعي، وإتاحة تواصل العلماء والدعاة مع الجمهور وعظاً وإرشاداً وإفتاء.

٣- الفقيه المالكي إبراهيم اللقاني، منار أصول الفتوى وقواعد الإفتاء بالأقوى، ص: ٢٣١

٤- يقول ابن القيم في بيان منزلة فقهاء الإسلام: «فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب (إعلام الموقعين: (٩/١)

٥- المصدر السابق (١/١١-٢٠)

٦- النووي، المجموع شرح المهذب (٤٠/١)

٧- الشاطبي، الموافقات (٢٤٤/٤)

٨- المصدر السابق

والمعاملات التجارية، ولعل من أظهر ذلك وأوضحه، مسالك توظيف الفتوى الدينية في ميادين العمل السياسي، والأخطر من ذلك كله، استباحة الدماء المعصومة بفتاوى دينية، وقع ذلك في أحداث الجزائر سنة ١٩٩٤، حينما أقدمت الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر بقيادة جمال زيتوني، على اغتيال الداعية الشيخ محمد السعيد، والداعية القيادي عبد الرزاق رجام، لاتهامهما بالانتماء أو تزعم تيار الجزأرة، وهو تيار مبتدع ومنافق، وتجب محاربته وقتل أنصاره المارقين والزائغين عن أصول الدين بحسب فتوى شرعية من زعيم الجماعة جمال زيتوني[٩].

> تتبدى خطورة الفتوى في حياة الناس وواقع المجتمعات، بما ينتج عنها ويترتب عليها من مواقف وأفعال وسلوكيات، في الأحوال الشخصية، والعلاقات المجتمعية

يتحدث أبو مصعب السوري (أحد مراجع ما يسمى الجهاد الجزائري في بريطانيا)، عن وقع تلك الجريمة في أوساط الجهاديين المقيمين في لندن، مشيراً إلى أن وجهاءهم تداعوا إلى اجتماع، خلصوا فيه بالإجماع إلى رفض واقعة الاغتيال، واستنكارها والتنديد بها، وبحسب أبي مصعب، فإن «من برر لتلك الجريمة كان يسوغها ويبررها دينياً تحت عنوان فتح الحوار مع الطواغيت، أو إنشاء علاقة معهم، أو السعي للعودة إلى الديمقراطية ومن يفعل ذلك، فإنه يستحق حينها القتل..»[١٠]

٩- http://goo.gl/MP٨QSS
القصة الكاملة لاستشهاد الشيخين محمد السعيد وعبد الرزاق رجام١٩٠٣ .

١٠- أبو معصب السوري، مختصر شهادتي على الجهاد في الجزائر» ص: ٣٣



وهـي ذات الفتـاوى الـتي تسـتخدمها بعـض تيـارات السـلفية الجهاديـة في سـوريا والعـراق حاليـا، إذ تحـت عناويـن التعـاون مـع الطواغيـت، يتـم تكفـير شـيوخ ورمـوز وأتبـاع التيـارات الأخـرى، بإلصاق أوصاف تجريحيـة مكفـرة في قاموسـهم، «كالصحوجية»، «الـردة»، و«السـلولية»، مـا يعـني كفـر وردة مـن يطلقـون عليهـم تلـك الأوصاف، وهـو مـا يفـضي إلى اسـتباحة دمائهـم، وقتلهـم بـدم بـارد، وجـزِّ رؤوسـهم طاعـة لله وتقربـا إليـه.

من هم المؤهلون للفتوى بشروطها وضوابطها؟

في نـص جامـع، أجمـل الإمـام الشـافعي وفقـاً لرأيـه الـشروط الواجـب توفرهـا في مـن يصـح أن يكـون مفتيـاً، فقـال: «لا يحـل لأحـد أن يفـتي في ديـن الله، إلا رجـلاً عارفـاً بكتـاب الله بناسـخه ومنسـوخه، وبمحكمـه ومتشـابهه، وتأويلـه وتنزيلـه، ومكيّـه ومدنيـه، ومـا أُريـد بـه، وفي مـا أُنـزل ثـم يكـون بعـد ذاك بصـيراً بحديـث رسـول الله، بالناسـخ والمنسـوخ، ويعـرف مـن الحديـث مثـل مـا عـرف مـن القـرآن، ويكـون بصـيراً باللغـة، بصـيراً بالشـعر، وربمـا يحتـاج إليـه للعلـم والقـرآن،... ويكـون بعـد هـذا مشرفـاً عـلى اختـلاف أهـل الأمصـار، ويكـون لـه قريحـة بعـد هـذا فـإذا كان هكـذا؛ فلـه أن يتكلـم ويفـتي في الحـلال والحـرام، وإذا لـم يكـن هكـذا؛ فلـه أن يتكلـم في العلـم ولا يفـتي»[١١].

وقد فصل تلك الشروط الدكتور أحمد محمود آل محمود في نقاط محددة في ما يلي:

- أن يكـون قيمـاً بمعرفـة أدلـة الأحـكام الشرعيـة مـن الكتـاب والسـنة والإجمـاع والقيـاس ومـا التحـق بهمـا.
- أن يكـون عالمـاً بمـا يشـترط في الأدلـة، ووجـوه دلالتهـا، وبكيفيـة اقتبـاس الأحكام منهـا، وهـذا يسـتفاد مـن أصـول الفقه.
- أن يكـون عارفـاً بعلـوم القـرآن والحديـث، والناسـخ والمنسـوخ، والنحـو واللغـة والتصريـف، واختـلاف العلمـاء واتفاقهـم بالقـدر الـذي يتمكـن معـه مـن الوفـاء بـشروط الأدلـة والاقتبـاس منهـا، ذا دربـة وارتيـاض في اسـتعمال ذلـك.
- أن يكـون عالمـاً بالفقـه، ضابطـاً لأمهـات مسـائله وتفاريعـه، فمـن جمـع هـذه الأوصـاف، فهـو المفـتي المطلـق المسـتقل الـذي يتـأدّى بـه فـرض الكفايـة، وهـو المجتهـد المطلـق؛ لأنـه يسـتقل بمعرفـة الأدلـة ووجـوه دلالتهـا[١٢].

يظهـر مـن تلـك الـشروط الـتي وضعهـا الفقهـاء، أنهـا تسـعى لتكويـن عالـم فقيـه قـد جمـع بـين معرفـة أدلـة الأحـكام بتفاصيلهـا ودلائلهـا، وفـق مـا تؤسـس لـه مباحـث علـم أصـول الفقـه، وبـين معرفـة الأحـكام العمليـة الفرعيـة بأدلتهـا الشرعيـة، مـع الإحاطـة بعلـوم اللغـة نحـواً وصرفـاً وبلاغـة، والوقـوف عـلى اختـلاف الأئمـة ومعرفـة أقوالهـم في المسـائل الفقهيـة.

إن اسـتيفاء تلـك الـشروط والتحقـق بهـا، لا يكـون إلا حينمـا تتوافـر محاضـن علميـة تتـولى إعـداد المفـتي وتكوينـه تكوينـاً علميـاً شـاملاً، يضـاف إلى ذلـك مـا يجـب عـلى المفـتي أن يحيـط بـه مـن معرفـة الواقـع الـذي يعيـش فيـه، ويتصـدى لإصـدار الفتـاوى لأهـل

١١- الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه (٢/٢٣١-٢٣٢)
١٢- أحمد محمود آل محمود، الفتوى آدابها وأحكامها، ص-ص: ١١-١٢

زمانه، وقد أشار ابن القيم إلى ضرورة ذلك بقوله: «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى إلا بنوعين من الفهم:

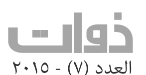
أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والإمارات والعلامات، حتى يحيط به علما. والثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله ورسوله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر، فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجراً، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله...»[١٣].

إن فوضوية الفتاوى ليست بسبب الطارئين عليها من خارج أهلها، ذوي الاختصاص والأهلية، بل تعود إلى أسباب أخرى، تدور حول منهجية التعامل مع الأدلة الشرعية ثبوتاً وفهماً واستدلالاً وتنزيلاً

فوضوية الفتوى: كيف يمكن علاجها؟

كلما أثير الحديث حول «فوضوية» الفتوى، تعلل كثير من أهل العلم الشرعي بأن ذلك ناتج عن تطفل

١٣- ابن القيم، إعلام الموقعني (٨٧/١-٨٨)



غير المؤهلين على ميادين العلم الشرعي، وتسور غير المتخصصين في العلوم الشرعية حائط الإفتاء الديني، ما أنتج حالة فوضى عارمة، اختلط فيها الحابل بالنابل، لكن المتابع للساحة الدينية، والراصد لنشاطات مشايخها ورموزها، يرى أن ثمة اختلافاً وتضارباً واضطراباً في الفتاوى الدينية بين علماء وفقهاء وطلبة علم كلهم من أهل العلم الشرعي، ومن المتخصصين في فنونه وعلومه المختلفة، وليسوا من الطارئين على ساحاته، ولا من المتطفلين على موائده، وهو ما يشي بأن ثمة أسباباً وعوامل عديدة لظاهرة «فوضوية» الفتوى، ولا يمكن حصرها بتطفل غير المتخصصين، وجرأة غير المؤهلين على اقتحام ساحاتها.

فصاحب فتوى إرضاع الكبير، التي أثارت جدلاً واسعاً (حينذاك مايو ٢٠٠٧) وأحدثت ردود فعل غاضبة وساخطة (تم إيقافه والتحقيق معه من قبل الأزهر) هو الدكتور المصري عزت عطية، عالم شرعي، كان يشغل رئيس قسم الحديث بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر، وقد أجاز فيها للمرأة إرضاع زميلها في العمل لمنع الخلوة المحرمة بينهما، فلم تأت الفتوى من دخيل على العلوم الشرعية، ولا متطفل على موائد أهلها[١٤].

إن تصدي غير المؤهلين للفتاوى الشرعية، وهجومهم على موائدها وهم ليسوا من أهلها، ينتج عنه في غالب الأحوال فتاوى خاطئة

وأعاد القول فيها عام ٢٠١٠، الشيخ السعودي عبد المحسن العبيكان، المستشار القضائي بوزارة العدل السعودية، والذي قال في فتواه: «إذا احتاج أهل بيت ما إلى رجل أجنبي يدخل عليهم بشكل متكرر، وهو أيضا ليس له سوى أهل ذلك البيت ودخوله فيه صعوبة عليهم، ويسبب لهم إحراجا وبالأخص إذا كان في ذلك البيت نساء أو زوجة، فإن للزوجة حق إرضاعه»[١٥].

وفي فتوى مخالفة للسائد في تحريم الغناء والمعازف، قال الشيخ السعودي عادل الكلباني[١٦] (إمام سابق للحرم المكي، وإمام وخطيب جامع الراجحي في الرياض) «الذي أدين الله به هو أن الغناء حلال كله، حتى مع المعازف، ولا دليل يحرمه من كتاب الله ولا من سنة نبيه صلى الله عليه سلم، وكل دليل من كتاب الله تعالى استدل به المحرمون لا ينهض للقول بالتحريم على القواعد التي قرروها واعتمدوها، كذا لم يصح من سنة نبينا - صلى الله عليه وسلم- شيء يستطيع المرء أن يقول إنه الغناء بآلة أو من دون آلة، وكل حديث استدل به المحرمون، إما صحيح غير صريح، وإما صريح غير صحيح، ولا بد من اجتماع الصحة والصراحة لنقول بالتحريم»[١٧].

بطبيعة الحال، فإن فتوى الشيخ العبيكان في جواز إرضاع الكبير، وفتوى الشيخ الكلباني في إباحة الغناء والمعازف، أثارت عاصفة من الردود الساخطة، فقد هاجمهما الشيخ محمد بن حسن الدريعي عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود، وقال رداً على سؤال لأحد المتصلين ببرنامج «أهل الذكر»، والذي يذاع على قناة أوطان: «إن الفتاوى التي صدرت منهما لو كانت قيلت في عهد الشيخ محمد بن إبراهيم أو الشيخ عبد العزيز بن باز لأمرا بإدخالهما السجن وقطع ألسنتهما»، وتابع الدريعي: «بعد إصدار العبيكان والكلباني لهذه الفتاوى، الأفضل لهما التوجه

١٤- فتوى تبيح للمرأة إرضاع زميل العمل منعا للخلوة المحرمة.. http://goo.gl/٤٩IqKk

١٥- كانت سنة ٢٠١٠

١٦- العبيكان يؤكد جواز إرضاع المرأة للأجنبي «بطرق مناسبة». http://goo.gl/BsoAMM

١٧- عادل الكلباني، «تشييد البناء في إثبات حِل الغناء». http://goo.gl/aMOjcC



إلى سوق الخضار للعمل هناك بدلا من التكلم في الدين والتدليس على الناس في دينهم»[١٨].

تلك نماذج ووقائع، تظهر أن فوضوية الفتاوى ليست بسبب الطارئين عليها من خارج أهلها، ذوي الاختصاص والأهلية[١٩]، بل تعود إلى أسباب أخرى، تدور حول منهجية التعامل مع الأدلة الشرعية ثبوتاً وفهماً واستدلالاً وتنزيلاً، وهو ما يكشف عن أمر جد خطير في أوساط أهل السنة ألا وهو غياب المرجعيات الدينية، القادرة على ضبط مسارات الفتاوى، وضبط إيقاعاتها، وتحظى في الوقت نفسه باحترام المسلمين وتقديرهم، ما يحملهم على الالتزام بتوجيهاتها، والتقيد بالفتاوى الصادرة عنها.

الفتوى بين سد الذرائع وفتحها

من بين أدلة الأحكام المختلف عليها عند الأصوليين، دليل سد الذرائع، التي «هي الوسائل، والذريعة: هي الوسيلة والطريق إلى الشيء، سواء أكان هذا الشيء

١٨- الدريعي: لو صدرت فتاوى العبيكان والكلباني في عهد ابن ابراهيم أو ابن باز لأمرا بسجنهما. http://goo.gl/oM8Sbw

١٩- وإن كان تطفل غير المتخصصين، وجرأة غير المؤهلين على اقتحام ميادين الفتوى وساحاتها من أهم الأسباب في شيوع ظاهرة «فوضوية الفتوى».



مفسدة أو مصلحة، قولاً أو فعلاً، ولكن غلب إطلاق اسم «الذرائع» على الوسائل المفضية إلى المفاسد، فإذا قيل: هذا من باب سد الذرائع، فمعنى ذلك، أنه من باب منع الوسائل المؤدية إلى المفاسد»[٢٠].

فحقيقة سد الذرائع هي «ما كان وسيلة وطريقاً إلى شيء آخر، حلالاً كان أو حراماً، وبهذا يكون التعريف شاملاً قسمي الذرائع، ما يُسَدُّ منها، وما يفتح.. و»المراد بسد الذرائع: المنع من فعل ذرائع الممنوع، لما تفضي إليه من الفعل المحرم، فمتى كان الفعل السالم عن المفسدة وسيلة إلى المفسدة مُنع من ذلك الفعل»[٢١].

دليل سد الذرائع عند القائلين بحجيته، يعد أصلاً بنيت عليه جملة من الأحكام الفقهية الفرعية، وثمة إعمال له بشكل واسع في أوساط ودوائر الإفتاء المعاصر، كما يلاحظ ذلك ويرصده القاضي الشرعي السعودي (السابق) الشيخ محمد الدحيم، إذ يقول: «في العرف الفقهي غلب السد على الفتح في قاعدة الذرائع، ولربما لا تجد للفتح ذكراً عند البعض، مما سبب أزمة في الفتوى والقضاء، وفي الدعوة والتربية، بل في الحياة والمعاش، فأصبح سد الذريعة سوطاً يضرب به الداعي والمربي، وملجأ لأشباه الفقهاء، ليعملوا به وصايتهم على الناس في حراسة مشددة للحدود..»

٢٠- د. عبد الكريم زيدان، الوجيز في أصول الفقه، ص: ٢٤٥
٢١- د. سعد العتيبي، أسس السياسة الشرعية / قاعدة الذرائع.
http://goo.gl/cztjt١

يتابع الدحيم انتقاده قائلاً: «وإهمال مشعور أو لا مشعور به للداخل الاجتماعي، مما أنهك قوى الناس واستنزف صبرهم، ودفعهم للمقاومة من أجل العيش والحياة، على حين لا يزال الفقيه يتمتع بالمعاندة والسلطوية ولا أدري إلى متى؟ ومتى سيشعر - عفا الله عنه - بمتغيرات الحياة ومستجداتها؟ ومتى سيلاقي بين المسطور والواقع؟ ومتى...؟ ومتى..؟ أرجو له إفاقة عاجلة...»[٢٢].

مصطلح «فتح الذرائع» الذي تحدث عنه الدحيم في مقاله، ذكره العلماء المتقدمون من قبل، كالإمام القرافي، حيث يقول: «اعلم أن الذريعة كما يجب سدّها، يجب فتحها، ويُكره ويُندب، ويُباح..»٢٣. فالمراد بفتح الذرائع ما عبر عنه بعض الباحثين بقولهم: «ولو وسَّع الفقهاء على الناس في بعض المسائل التي أضحت من أولوياتهم واحتياجاتهم: كمجالات عمل المرأة، ومشاركاتها الاجتماعية، ومعاملاتها المالية والاقتصادية، وبعض مسائل الترويج والترفيه والرياضة؛ وضبطوا لهم صور الجواز واستثنوا منها صور المنع، ووضعوا لهم البدائل الشرعية، لكان خيراً من أن يحملوا الناس على هذا المركب الخشن من المنع العام، والتحريم التام لكل تلك القضايا النازلة»[٢٤].

خلاصة القول: كيف يتعاطى الفقهاء مع مستجدات الحياة في كل مناحيها ومختلف جوانبها؟ هل يغلبون جانب المنع والتحريم، أخذا بسد الذرائع، واتقاء للشبهة، وعملا بالأحوط، وهو الخيار الأيسر والأسهل (هروبا من البحث الجاد والمتأني لاجتراح سبل الترخيص المشروع، وإيجاد البدائل الشرعية)، أم يوسعون على الناس، أخذا بفتح الذرائع إن كانت تفضي إلى مصالح راجحة، وفي الوقت نفسه تبشر بالدين ولا تنفر عنه، مع التقيد بأدلة الشرع، وتحقيق مقاصد الشريعة العامة.

مخاطر الفتاوى السريعة والشاذة على المجتمعات الإسلامية

حينما يتصدى المفتي المؤهل لإصدار فتوى تبين الحكم الشرعي في المسألة المسؤول عنها، فإنه حينذاك يتولى مهمة عظيمة وخطيرة، وينطبق عليه حينها قوله عليه الصلاة والسلام: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[٢٥]. لكن من يتصدى للفتوى، وهو ليس من أهلها، فإنه لا يحل له ذلك، وهو آثم بفعله ذاك.

يقول الإمام النووي: «قال العلماء أجمع المسلمون على أن هذا الحديث في حاكم عالم أهل للحكم (والحكم لا يكون إلا بعد العلم والاجتهاد)، فإن أصاب فله أجران أجر باجتهاده وأجر بإصابته، وإن أخطأ فله أجر باجتهاده... فأما من ليس بأهل للحكم فلا يحل له الحكم، فإن حكم فلا أجر له، بل هو آثم ولا ينفذ حكمه سواء وافق الحق أم لا، لأن إصابته اتفاقيه ليست صادرة عن أصل شرعي، فهو عاصٍ في جميع أحكامه سواء وافق الصواب أم لا وهي مردودة كلها ولا يعذر في شيء من ذلك»[٢٦].

٢٢- محمد الدحيم، مقال «فتح الذرائع».
http://goo.gl/z0U6W7
٢٣- شهاب الدين القرافي، شرح تنقيح الفصول، ص: ٤٤٩
٢٤- د. مسفر بن علي القحطاني، د. سارة بنت عبد المحسن جلوي آل سعود، «الموقف الديني من قضايا المرأة المسلمة: دراسة لمنهجية الفتيا في قضايا المرأة المعاصرة» ص: ١٠
٢٥- البخاري (٦٩١٩)، مسلم (٤٥٨٤)
٢٦- النووري، شرح صحيح مسلم (١٤/١٢)

إن تصدي غير المؤهلين للفتاوى الشرعية، وهجومهم على موائدها وهم ليسوا من أهلها، ينتج عنه في غالب الأحوال فتاوى خاطئة، كما أن غفلة بعض أهل العلم وتعالمهم، وعدم معرفتهم الدقيقة بالمذاهب الفقهية المعتبرة بأصولها وقواعدها، يفضي إلى إشاعة الفتاوى السريعة والشاذة والغريبة، والشاذ من الفتاوى هو «كل فتوى يفارق فيها صاحبها الجماعة (أهل العلم)، ويخالف فيها الصواب المقطوع به»[٢٧].

للفتاوى الشاذة والغريبة آثار سلبية وخطيرة على المجتمعات الإسلامية، في ما يلي ذكر بعضها:

- حصول البلبلة والحيرة بين المسلمين، فإن الفتاوى الغريبة والشاذة قد يكون لها تأثير واسع في المجتمع، حيث لا يمكن أن يزول أثرها بسهولة، فسرعان ما تنتشر كما هو واقع في بعض مجتمعاتنا.. وهو ما يحدث في كثير من المعاملات البنكية، مثل إباحة الفوائد الربوية، فبعضهم يحلل، وبعضهم يحرم.. (وكما في فتوى إرضاع الكبير).

- اهتزاز الثقة في علماء الدين، والتشكيك في قدراتهم ونزاهتهم، فمن آثار الفتاوى الشاذة والغريبة فقدان الثقة في علماء الدين، خاصة الذين يبيعون آخرتهم بدنيا غيرهم، بسبب ميوعتهم في الدين، وتلاعبهم بالمسلمين... (كما في الفتاوى الصادرة لأغراض سياسية وسلطوية).

- الاستهانة بأمر الدين، والتقليل من قيمة الشرع والنفور منه، فحينما يرى عامة الناس انتشار الفتاوى الغريبة والشاذة فإن ذلك ينعكس على مدى تعظيمهم للدين وأحكامه.

- قد يفضي انتشار الفتاوى الشاذة، والغريبة، إلى انتشار مسلكي التشديد والتساهل في الفتوى، كردة فعل على ذلك، وغياب مسلك الوسط والاعتدال، الذي يعمل أتباعه بالتيسير في مواطنه، وحيثما وجدت أسبابه، بعيداً عن مسلكي الإفراط والتفريط...[٢٨].

إن التصدي لمعالجة ظاهرة فوضوية الفتوى، بما تحمله في ركابها من غرائب الفتاوى وشواذها، وما تتركه من آثار سلبية، وتداعيات قلقة على المجتمعات الإسلامية، يتطلب إشاعة ثقافة العلم الشرعي، وحث المسلمين على التتلمذ، والأخذ عن الفقهاء الراسخين في علوم الكتاب والسنة، وعدم الأخذ على أيدي المتطفلين وغير المؤهلين، ومنعهم من التصدي لإصدار الفتاوى الشرعية، وقد يكون الجانب الأهم يتعلق بالفضاء الإعلامي بوسائله المختلفة، وفي مقدمتها الفضائيات، التي تكثر فيها برامج الإفتاء على الهواء مباشرة، ما يستدعي حسن اختيار من يتولى الإفتاء في تلك البرامج من العلماء المتقنين الراسخين في الفقه الإسلامي، حتى تظل للفتوى مكانتها ودورها البنائي الفاعل في نفوس المسلمين، وفي مجتمعاتهم بكل مناحيها وجوانبها المختلفة.

٢٧- د. جمال شعبان، «الفتاوى الشاذة وأثرها على المجتمع دراسة فقهية تطبيقية» (بحث محكم).
٢٨- المرجع السابق بتصرف.



لمعرفة المزيد يرجى زيارة موقع مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث
www.mominoun.com



بقلم: د. دعاء فينو
باحثة أردنية في الخطاب الإسلامي وقضايا المرأة

ليس انتقاصاً من المرأة بل اغتيال للحق الرباني!



لم تعد الفتاوى في عصرنا حبيسة كتب المذهب، ليقرأها أحد التلاميذ أو العابرون من طلبة العلم أو من هبت عليه هبة «تدين» مفاجئ، أو ليرددها أحد المشايخ أو الدعاة أو الوعاظ الذين يودون لو طرزوا كلماتهم بكل ما هو بديع خلّاب من قصص الصالحين والأولياء، بل صارت صنعة جديدة لكل وجه يطل عبر شبكات التواصل، ليحدث فرقعة إلكترونية لا ينتظر فيها دوراً رسمياً أو خطبة في مسجد أو حفلا أو قناة فضائية ليسجل حضوراً إعلامياً صاخباً. يكفيه حين يدلي برأيه «الفقهي» أن يُصدّر خطابه بآيات قرآنية ثم نصاً نبوياً – بغض النظر عن درجته – ثم يكلله بكل أصناف العبارات الزاجرة بثقة عالم مفوَّه!

> بحث عن المرأة، هكذا يبدو واقع الحال لمّا نتتبع صفحات التواصل الاجتماعي، وتبرز الفتاوى الغريبة والمستهجنة، والتي قد تضرب عميقاً في غياهب اللاعقلانية.

ابحث عن المرأة، وأطلق فتوى يتم استهلاكها في العالم الافتراضي بسرعة مذهلة؛ قد تفوق النار في الهشيم. فأنت حين تغرد بها، أو تنشرها في صفحات التواصل جعلتها في مسار اللاعودة في الذهنية الاجتماعية. فأنت أحدثت خللاً بإطلاقها إن كنت مفتياً، أو رسخت فجوة لخلل لن تبرأ منه الذاكرة الاجتماعية بمجرد النشر. ليس لأن ما غرّدت به كان ذكياً مفيداً أو ممتعاً؛ بل لأنه يضرب على وتر حساس في العقل العربي المسلم، وظّفت فيه المقدس ليجد طريقه عنوة، عقله الناس أو لم يعقلوه. هم سيحملونه وسيصدقونه وسيتناقلونه سريعاً. سهم وانطلق ولن يقف

أثره بعدها، لأننا سنلاحقه وسنلاحق آثاره، وسيتضاعف أثره كلما لوحق، وسيتجدد إشكاله في كل مرة راق لأحدهم أن يضحك، أو يدعو لفكرة لامست غرائزه أو قناعات يميل إليها،...وربما سيكون آخر همه أن يتحقق، أو يناقش لأجل المعرفة الحقّة. إذن هي الفتوى الشاردة، يفلت عقالها، وتفعل في الجسد الاجتماعي فعل السهم المسموم على كل حال؛ أبقيناها أو حاولنا نزعها؛ فقط بمجرد انطلاقها!

ظاهرة لقديم حاضر في «الذهنية العربية»

سيجد المتابع للخطاب العربي الإسلامي في شؤون المرأة أن الفتاوى - تاريخياً - كانت ولم تزل المحددة لحرية المرأة وفاعليتها في المجتمع. لما كان الجمهور العربي ينظر إلى الفتوى في الشريعة أنها «هي توقيع العالم عن ربه»؛[١] وهو تعريف نقف منه على تحفظ لأنه - بلا شك - سيضفي على تلك الفتاوى قداسة تمنع العقل المسلم من النظر عميقاً في بواعثها.

١- وفق ما يردده كثير من المشايخ والفقهاء «الفتوى في العقيدة الإسلامية هي تعبير عما وهب الله شخصاً معيناً من العلم ، ويعد إصدار الفتوى في الإسلام أمراً عظيماً من ناحية المسؤولية، ويعتبر البعض من يصدر الفتوى إنه شخص نصب نفسه للتوقيع عن الله في أمور جدلية، مثل الأمر أو النهي أو إطلاق مسميات مثل الحلال والحرام ومستحب ومكروه وغيرها. يتم إصدار الفتوى عادة نتيجة غياب جواب واضح وصريح يتفق عليه الغالبية في أمر من أمور الفقه الإسلامي، ويتعلق بموضوع شائك ذو أبعاد سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو دينية، وتطلق تسمية المفتي على الشخص الذي يقوم بإصدار الفتوى» الموقع الرسمي للشيخ عثمان الخميس: http://goo.gl/AV٦t٩e



من الأمثلة الحاضرة فتوى الشيخ المناوي في ما أفتى به «عورة صوت المرأة» حمل من العامة، وكأنما جاء على عطش. ثم صار الناس بعدها يميلون إلى حجب المرأة وراء «الحرملك» خوفاً عليها من الفتنة، فتنة الوقوع في حبائل جنود المستعمر «المجند البريطاني أو الفرنسي». وحتى اليوم ما زلنا نجيب على أصداء هذه الفتوى التي لا تستند إلى نص شرعي مُرجح، كلما تجدد حضورها من إمام في خطبة، أو زوج يود لو يغلب زوجه، أو مداعب مازح مع جنس حواء أو مستفز لها على شبكات التواصل.[٢]

المتابع للخطاب العربي الإسلامي في شؤون المرأة سيجد أن الفتاوى – تاريخياً – كانت ولم تزل المحددة لحرية المرأة وفاعليتها في المجتمع

القديم الحاضر في الذهنية الإسلامية هو حراسة المرأة من الوقوع في براثن الاستغراب الذي بدأ مع الاستعمار وسقوط الخلافة. ويتجدد دوماً الخطاب المتشدد، بل ويكون الأبرز حضوراً في حماسة الموقف، وهو يستجمع في ذلك كل ما تيسر من تأويلات لنصوص شرعية صحيحة، ويُغيّب نصوصاً صحيحة صريحة أخرى تناقض معرفياً الفتوى أو «الرأي الديني» الذي يدعو إليه تحت عباءة «فساد ناس الزمان» وكأن الشريعة لا تصلح لكل زمان ومكان؟! ولعل الأمر الجلل لا يقف هنا بل قد يستمرئ حشد نصوص موضوعة مكذوبة على النبي الكريم- أو صحابته- ويتركها هكذا في النقل سائبة؛ معوّلاً على قداسة النسبة التي سيكتفي بها كل مسلم «عادي». هذا الهاجس الذي نصّب فيه «الدعاة» أو «الفقهاء» أو «الشيوخ» أو أصحاب رؤى محددة في التاريخ الإسلامي أنفسهم حراساً للخطاب الديني الذي يغار على المرأة المسلمة والدين معاً أكثر من غيرة الله ورسوله. وزاولوا فيه العسكرة والمصادرة لكل فتوى شرعية تناقض ما أفتوا به! حالة متناقضة بين محب للمرأة خانق لها بالفتاوى، وبين خطاب يردد أن الإسلام جاء وحررها وأعطاها ومكنها. صورة ما زالت متلبسة للذهنية العربية والعقل المسلم يلخصها الشيخ عبد الحليم أبو شقة في كتابه بجملة واحدة: «عندما تغيب النصوص وراء آراء الرجال»[٣].

صناعة الفتاوى الغريبة والمسيئة للمرأة

الجديد في عصرنا، أن هذه الفتاوى لم تعد حبيسة كتب المذهب، ليقرأها أحد التلاميذ أو العابرون من طلبة العلم أو من هبت عليه هبة «تدين» مفاجئ، أو ليرددها أحد المشايخ أو الدعاة أو الوعاظ الذين يودون لو طرزوا كلماتهم بكل ما هو بديع خلّاب من قصص الصالحين والأولياء، بل صارت صنعة جديدة لكل وجه يطل عبر شبكات التواصل، ليحدث فرقعة إلكترونية لا ينتظر فيها دوراً رسمياً أو خطبة في مسجد أو حفلا أو قناة فضائية ليسجل حضوراً إعلامياً صاخباً. يكفيه حين يدلي برأيه «الفقهي» أن يُصدّر خطابه بآيات قرآنية ثم نصاً نبوياً - بغض النظر عن درجته - ثم يكلله بكل أصناف العبارات الزاجرة بثقة عالم مفوَّه!

٢- للمزيد أرجو مراجعة مقالنا «المرأة في الخطاب الاسلامي» المنشور على الشبكة العنكبوتية.
٣- كتابه معروف منشور «تحرير المرأة في عصر الرسالة» حشد فيه النصوص الصحيحة لكل مسألة تعنى بواقع المرأة ومكانتها وفاعليتها في المجتمع المسلم الأول. فكان كتابه تسجيلاً اجتماعياً تهيمن عليه النصوص في وجوه هؤلاء المفتين في القرن، انظر المقدمة التي برزت فيها هذه العبارة.

المتصفح لهذه الفتاوى الغريبة المتصلة بالمرأة يسجل الملاحظات التالية:

أولا: بعض هذه الفتاوى المتصلة بالمرأة تناقلتها المواقع على أنها لشيوخ محددين ومعروفين «كفتوى تحريم جلوس المرأة على الكرسي»[٤] أو «نكاح الجهاد»[٥]. وفي كلتا الحالتين تبرأ الشيخان مما نُسب إليهما، وهو كلام لا يصح شرعاً ولا عقلاً بكل تأكيد. الغريب في الأمر أن المواقع الإلكترونية[٦] حفلت بالفتوى المكذوبة، وأبقت على النسبة لهؤلاء الشيوخ، ولم تسحب المقالات المتعلقة بها، والذي يجعلنا نتساءل هل المقصد هو المرأة التي هي محل الفتوى أو المفتي الذي نُسبت إليه. فتكون الفتوى آلة مشبوهة لاغتيال الهيئات والشخصيات الأكثر تأثيرا!

ثانيا: فتاوى مسفة أخرى «كتحريم نظر المرأة أو لمسها لبعض أنواع الفاكهة لعلة جنسية» نُسبت إلى شيخ مجهول الاسم والعين يعيش في الغرب. واللافت أيضاً أن هذه الفتوى طارت في الآفاق الإلكترونية على ما هي، دون بحث عن القائل أو تثمين للفتوى. وهذا ما جعل «الفتوى من حيث هي توقيع عن الله»[٧] تتحول إلى مادة للسخرية. وهنا أيضاً نتساءل: هل المقصد حقاً «المرأة وجسدها والإيحاءات الجنسية» أم المقصود إصابة «مكانة عالم الدين» ووسمه بالسذاجة والغباء والخيالات الجنسية؛ وإن كان لم يتحقق المبدأ الرئيس في التعاطي مع المعلومة من حيث هي: أي محاكمة المصدر!

نسجل حالة من «اللابراءة» في قراءة هذه الفتاوى ومحاكمتها من هذه المواقع التي غلب عليها في الحد الأدنى «الجشع المادي» على حساب القيمية الأخلاقية

ثالثا: المقالات التي تناولت «الفتاوى المثيرة للجدل» من شيوخ «مثيرين للجدل» جعلت للجماعة «السلفية» القدر الأكبر منها، والذي حاز المتابعة الأكبر عبر تويتر. هذه الفتاوى صدرت من مشايخ ورتب علمية وفكرية في السعودية ومصر[٨]، وازتها حضوراً فتاوى مقابلة فيها من التفلت الجنسي ما فيها[٩]، برزت فيها أسماء محددة «مثيرة للجدل» أيضاً بحسب موقفها السياسي والأيديولوجي معاً[١٠]. ولا يخفى أن الموقف السيايى والأيديولوجي أيضا للمواقع التي تناولت محاكمة «هذه الفتاوى» جعلت عرضها متحيزاً لقيمية هذه الفتاوى العلمية وبواعثها، غاضة النظر عن أحقيتها بالنقد دون دراسة حيادية للموقف الشرعي، يُسأل عنه المتخصصون في الفقه الإسلامي من حيث هي «نازلة» يُسألون عنها، وتعالج وفق ما تعارف عليها في علوم الشريعة. كما أنها لم تتساءل عن سر التوقيت الزماني والسياق السياسي الذي أطلقت فيه هذه الفتاوى، أو فبركتها أو استلالها من

٤- نُسبت الفتوى إلى موقع الداعية الحبيب عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ، وحملت عنوان «تنبيه إلى حرمة الكراسي وما أشبهها من مقاعد وآرائك، والله أكبر» وجاء في نص الفتوى: والغالب أن الجّن ينكحون النساء وهنَّ على الكراسى....» والمتتبع للموقع لن يجدها فيه.

٥- نُسبت لموقع الشيخ محمد العريفي، والذي تبرأ منها لاحقا.

٦- في تتبعي لهذه الفتاوى في المواقع الإلكترونية وخاصة من نسبت إلى معلوم.

٧- هذا التعريف الذي أتحفظ عليه بكل تأكيد.

٨- الدكتور علي الربيعي، والشيخ صالح اللحيدان، الشيخ ياسر برهامي.

٩- والدكتور جمال البنا «المثير للجدل في فتاوى كثيرة مسجلة، والداعية المغربي المثير للجدل أبضا عبدالباري الزمزمي: «الاحتكاك بين المرأة والرجل في الحافلات لا يفسد الصيام حتى لو نتج منه قذف».

١٠- كفتوى الزواج من المرأة الصوفية حرام. حرم الشيخ السلفي محمد صالح المنجد، الزواج من المرأة الصوفية لأنها «واقعة في السرك الأكبر». فتوى له على موقعه الرسمي «الإسلام سؤال وجواب»، والذي قابلته فتوى الشيخ مظهر شاهين بطلاق المرأة التي تنتمي لحزب الإخوان المسلمين في مصر!

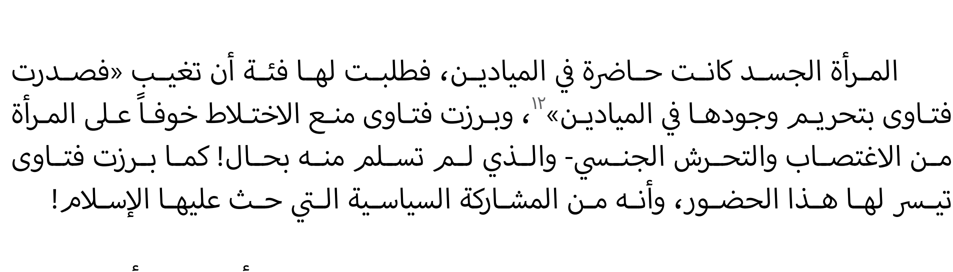
سياقاتها![11]، مما يجعلنا نسجل حالة من «اللابراءة» في قراءة هذه الفتاوى ومحاكمتها من هذه المواقع التي غلب عليها في الحد الأدنى «الجشع المادي» على حساب القيمية الأخلاقية؛ حتى لو اكتفت بتدوير هذه الفتاوى على علاتها؛ فإصابة العقل العربي وتوازنه الأخلاقي، حادثة لا محالة بعرض الفتوى من هذه المواقع وتكرار العرض.

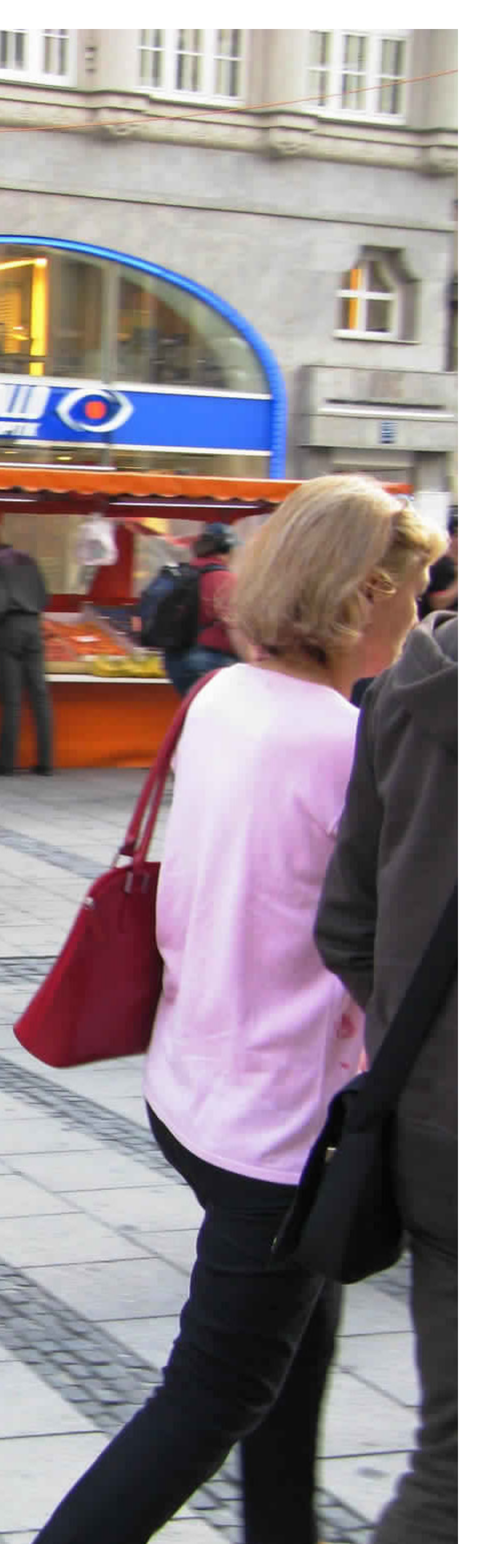
جدلية «جسد المرأة، والدعوة إلى الغريزية» بين ظهور ماجن أو إخفاء مميت

الفتاوى المثيرة للجدل من شيوخ أكثر إثارة للجدل، وفي توقيت سياسي الأكثر هيجاناً وإثارة للجدل أيضاً، إن كان ربيعاً شبابياً، أو مشروعاً استعمارياً، أو رجعة إلى عصور التخلف الأكثر همجية، أو ما سمي صحوات إسلامية. هو باختصار زمان الفوضى السياسية في العالم العربي الذي يحضر فيه الدم ولا تكاد تعرف فيه حقيقة أو حقا!

١١- انظر مثلا اليوم السابع: «زاد نيوز»
http://goo.gl/sKCK٣i
الزمزمي والفتاوى المثيرة للجدل: «جواز ممارسة الجنس الفموي بين الزوجين»
نشر في شعب بريس يوم ٢٣ - ٠٧ – ٢٠١١
http://goo.gl/jzAMBy







المرأة الجسد كانت حاضرة في الميادين، فطلبت لها فئة أن تغيب «فصدرت فتاوى بتحريم وجودها في الميادين»[١٢]، وبرزت فتاوى منع الاختلاط خوفاً على المرأة من الاغتصاب والتحرش الجنسي- والذي لم تسلم منه بحال! كما برزت فتاوى تيسر لها هذا الحضور، وأنه من المشاركة السياسية التي حث عليها الإسلام!

والذي جاء في سياقه بإلقاء فتوى «نكاح الجهاد» التي تبرأ منها كل أحد، وغرر بسببها بفتيات تونسيات قصّر![١٣]

السلفية السعودية ممثلة بمشايخها- كما تنبه «أغلب المواقع»- هي الأكثر تناولاً لكل فتوى مرتبطة بالحجر على المرأة «كمثير غريزي»، يجب إخفاؤه لضعفه ولأنه مستهدف غريزياً من الرجل، ويجب التعامل معه «كهدف جنسي خطير» على التشكك والريبة، لأنها فتنة، والفتنة حيث هي تكون.

الفتاوى تلونت بحسب قريحة هؤلاء المشايخ؛ فمن محرمٍ لسباحة المرأة والحكم فيه بالزنا وإقامة الحد، إلى قلق من استثارة غريزتها من الرجل بجلوسه على الكرسي قبلها، أو بتشغيلها للمكيف، فتكون دعوة إلى اغتصابها، لأنها إشارة إلى عدم وجود زوج يحميها، أو قيادتها للسيارة ذات الزجاج الشفاف، حيث يراها الرجل، أو تُغطى حين إسعافها حيث لا تُرى ولا تُلمس من مسعفيها![١٤]

كثير من المواقع مع ذلك، حكمت بأن هذه الفتاوى التي كان محلها «جسد المرأة» تنامى ظهورها بسيطرة «الإسلام السياسي» على السلطة في مصر وتونس! [١٥]مع أن السلفية في السعودية مثلاً في تضاد سياسي ومعرفي مع «الإخوان المسلمين» الذين وصلوا إلى السلطة.

في المقابل، كانت فتاوى أخرى تُيسر الوصول إلى المرأة «الهدف الجنسي ومصدر متعة الرجل، يقول الداعية المغربي المثير للجدل عبدالباري الزمزمي: «الاحتكاك بين المرأة والرجل في الحافلات لا يفسد الصيام، حتى لو نتج منه قذف». وأكد أن الشهوة الجنسية التي تنتج من الاحتكاك بين الرجل والمرأة في وسائل النقل لا تفسد الصيام، حتى لو وصلت إلى درجة القذف، لأنه لا حرج في هذه الظروف الاضطرارية، خصوصاً في ظل غياب بديل عن هذه المواصلات المكتظة، وإلا فكيف سيتمكن المرء من الالتحاق بمنزله أو عمله»[١٦]. بألفاظ أخرى هو يبسط نتائج التحرش الجنسي، ويجعلها في دائرة الشرعنة والقبول الاجتماعي. وكأن همه عدم تحريم الرجل أو حتى شعوره بغضاضة في تلك الظروف الاجتماعية!

كذلك كان الأمر في فتوى مظهر شاهين في مصر، فلأجل حصول الرجل على متعة جنسية أكيدة، أباح فيها لمن يفكر في الزواج بامرأة أن يتلصص عليها - بحرفية

١٢- الأدلة والبيانات على حكم المظاهرات والاعتصامات.
١٣- عز الدين الهادف
http://goo.gl/٣NVyGB
١٤-http://goo.gl/IFHywp
١٥- وكالة أنباء براثا http://goo.gl/T٤hrgk
http://goo.gl/٠١Bcgg
١٦- فتاوى الشيخ الزمزمي
http://goo.gl/PzcpH٨
http://goo.gl/iDWZn٣

الكلمة- حتى «يرى» منها ما يرغبه بالزواج منها، على رواية تؤول فيها الرؤية الاجتماعية على أنها رؤية «جنسية بحتة»!

الحركات النسوية والمؤسسات الرسمية للإفتاء بين الامتعاظ والمساءلة

سرعة انتقال الفتاوى المسيئة زاد من فرط حساسية الحركات النسوية والمجتمع المدني، ولا شك أنها دقت ناقوس الخطر بضراوة؛ فلا يخفى أثر هذه الفتاوى في

ملامسة شغاف الغريزة الجنسية لأصحاب النفوس المريضة من الذكور، والذين - كانوا وما زالوا - يتصيدون فرائسهم من النساء باستغلال كل فجوة قانونية، أو أعراف اجتماعية موروثة ظالمة، أو تأويلات دينية ضعيفة لنصوص صحيحة، أو أحاديث موضوعة مكذوبة، أو فلتان أمني سياسي؟

امتعاض الناشطات في المجتمعات النسوية[١٧]، وتتبع التهكمات الساخرة على هذه الفتاوى من الجنسين، تؤكد على فرط حساسية الموقف اجتماعيا ودينيا.[١٨] فالإصابة في العقل العربي والمسلم على السواء ملموسة في تراجع فئات شبابية من الجنسين عن حقوق المرأة والرجل في العلاقة الزوجية والحراك الاجتماعي كله؛ بعد أن استطاعت هذه الناشطات وغيرها من مؤسسات المجتمع الديني الإصلاحية، والمؤسسات المدنية تحقيقه من مكتسبات قانونية وتوعوية اجتماعية لحماية المرأة.

حكمت كثير من المواقع بأن هذه الفتاوى التي كان محلها «جسد المرأة» تنامى ظهورها بسيطرة «الإسلام السياسي» على السلطة في مصر وتونس

ولعل إصابة المؤسسات الدينية الرسمية كانت عظيمة،[١٩] فهي شهدت زحزحة في مكانتها في المجتمع العربي المسلم، أفقدها أو نازعها في أهليتها فيه دعاة ومفكرون ومشايخ أفرزتهم القنوات الفضائية والعالم الافتراضي؛ ولم يقف الأمر عند ذلك، بل شارك بعض هؤلاء العلماء الرسميين في إثارة الجدل بفتاوى مستهجنة منها ما طال المرأة ومنها ما كان مسيّساً بامتياز[٢٠].

١٧- القبس الكويتية، الفتاوى الغريبة على الإنترنت وجه جديد للعنف ضدّ المرأة، جمعية ‹تضامن› الأردنية تندّد بالفتاوى المسيئة المتعلقة بالنساء وتعتبرها انتهاكاً صريحاً لحقوقهن الإنسانية
نُشر في ٢٠١٤/٠٨/١٥، العدد: ٩٦٤٩، ص(٢١) العرب.
http://goo.gl/WYVK٠N

١٨- انظر مقالة آمال قرامي، قراءة في خلفيات الفتاوى المسيئة للإنسان، السبت ٣٠ أيار (مايو) ٢٠٠٩، شفاف السرق الأوسط
http://goo.gl/YkkPOE

١٩- أنقرة: حملة لإنقاذ حقوق المرأة من الفتاوى المسيئة، أنقرة - حسني محلي، القبس الكويتية
الإسلام الحقيقي يقول بالمساواة والاحترام
http://goo.gl/MBuX٩N
وهذا نصها كاملاً لأهميتها: دعا رئيس الشؤون الدينية، وهو بمرتبة وزير الأوقاف في تركيا إلى إزالة كل ما يستهدف المرأة وحقوقها من الكتب والأدبيات الدينية. وكلف البروفيسور برداك أوغلو مساعدته البروفيسورة بيضاء بيلكين بالإشراف على هذا العمل، وقال إنه ‹مهم جدا التخلص من الخرافات والسفسطة التي تستغلها بعض الأوساط المعادية لحقوق المرأة ومساواتها مع الرجل›.
وأشار برداك أوغلو إلى دور الإسلام في تحقيق المساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة واحترام الرسول صلى الله عليه وسلم للمرأة وحقوقها، مضيفا ‹علينا جميعا أن نتصدى لمحاولات البعض إهانة المرأة والحط من قيمتها الاجتماعية والإنسانية›.
وأورد برداك أوغلو العديد من الأحاديث غير الصحيحة التي تسوقها الجماعات الدينية المعادية للإسلام الحقيقي، وقال إن رئاسة الشؤون الدينية ستقوم بحملة واسعة لشرح حقائق الإسلام للمواطنين، وأضاف ان الرئاسة ستخصص العديد من خطب الجمعة لهذه الغاية.
وكانت رئاسة الشؤون الدينية نقلت العديد من الأحاديث غير الصحيحة في كتيب خاص ووزعته على الجوامع والمؤسسات الدينية لإيصالها إلى المواطنين. ومن هذه الأحاديث:
‹لو عرفت النساء حق الرجال عليهن لمسحن غبار أقدامهم بوجوههن›.
‹لقد رأيت أن معظم أهالي جهنم من النساء›.
‹إذا رفضت المرأة طلب زوجها بالمعاشرة فما عليها إلا أن تهيئ مكانها في جهنم›.
‹لن تدخل المرأة الجنة إلا إذا رضي زوجها عليها قبل وفاتها›.
‹لولا بنو إسرائيل لما فسد اللحم، ولولا حواء لما خانت النساء الرجال›.

٢٠- كفتاوى الشيخ الدكتور علي جمعة، والسيد طنطاوي والشيخ علي الحكمي الذين يشغلون جميعاً كراسي الفتوى الرسمية في بلادهم.
انظر: الرياض- من قحطان العبوش، ارم
http://goo.gl/yVEPjj و http://goo.gl/S٢bvYC
القدس http://goo.gl/dxuJBz
القاهرة - سناء الطويلة، http://goo.gl/EB٩UR٠
فتاوى وآراء الشيخ سيد طنطاوي المثيرة للجدل، medhat٢٠٠٩١٩٧٥

وإن كنا نعلم مسبقاً أن عصر العولمة بكل مكوناته التكنولوجية، كان قد فرض على هؤلاء العلماء الرسميين حالة من اللاتوازن الأيديولوجي في المجتمع العربي تُلزمه بمراجعة خطابه ليتناسب معها؛ لكنه بكل تأكيد لم يفعل، وظل يتعامل مع العقل العربي المسلم وفق حدوده الجغرافية الذي تجاوزها الأخير مسبقاً.

إن سرعة انتقال الفتاوى المسيئة زاد من فرط حساسية الحركات النسوية والمجتمع المدني، ودقت ناقوس الخطر بضراوة

ربما الحالة التركية، برزت بموقفها الرسمي الديني من هذه الفتاوى ووجدتها فرصة لتضرب بيد شديدة كل قديم - جديد يسهم في تكرار هذه الفتاوى أو إيجادها من حيث الأصل في العقل المسلم، لا يقف فيه الأمر عند الوسائل التكنولوجية؛ بل بتجاوزه إلى كل ما تناقلته المؤسسات الدينية سابقاً على أنه «موروث ديني» غير قابل للنقض. وهذا هو ما يلزم أن تتبعها فيه المؤسسات الرسمية الدينية في البلدان الإسلامية والعربية الأخرى، وإلا ستظل هي بحمايتها لتلك النصوص تُبقي مستندات شرعية تجعل الدين كله مغتالاً به، طالما تنطلق أن الفتوى هي «توقيع العالم عن ربه»، فلا بقي بعدها عالم ولا نص يُحترم بعده، وأنه لعمري اغتيال للحقوق الربانية: ونعني بها: حاكمية الشرع والدين التي أمر بها رب العالمين على العباد وليس على المرأة وحدها.

---

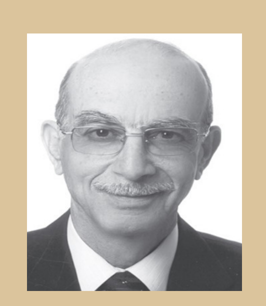
http://goo.gl/IUWhUK

فتوى الشيخ اللحيدان بمنع المرأة من قيادة السيارة

http://goo.gl/Tuyrbl

فتوى الشيخ علي الحكمي بمنع إسعاف المرأة وعدم ملامستها أثناء ذلك. انظر رأي اليوم

http://goo.gl/ROOJPr



بقلم : د. عصام سليمان الموسى
خبير أردني في الاتصال والإعلام

أخطر فتوى دينية: تجهيل الشعب العربي أربعة قرون



خضعت البلاد العربية لحكم العثمانيين مدة أربعمائة عام (١٥١٦-١٩١٨)، وبينما كانت أوروبا ترتدي أثواب المعرفة التي جاءت بها المطابع وزاد عددها في أرجاء مدنها عن ٢٥٠٠ مطبعة قبل نهاية القرن الخامس عشر، تنشر في أنحائها حركات التنوير والإصلاح الديني والنهضة العلمية والصناعية والفكرية؛ نجد في المقابل السلطة العثمانية، ممثلة بشيخ الإسلام، تصدر فتوى خطيرة تكرس الجهل. وقد عزا العثمانيون صدور الفتوى إلى سببين: الأول، تمثل بموقف رجال الدين وخشيتهم من حدوث اضطرابات في الدولة العثمانية، والثاني، بسبب الضغوط التي مارستها فئة الوراقين العاملين بالنسخ والخط الذين أشاعوا «أن طبع الكتب يتناقض مع الدين».

انتشر استعمالُ المطبعة على نطاق واسع في أوروبا بعد اختراعها في ألمانيا عام ١٤٣٩م، لكنها تأخرت في الدخول إلى الدولة العثمانية حتى الثلث الأول من القرن الثامن عشر، وذلك بسبب القوى الدينية التي اتخذت موقفاً معارضاً لها.

يذكر أديب مروة في كتابه (الصحافة العربية: نشأتها وتطورها)، أن رجال الدين أفتوا بأن المطبعة «رجس من أعمال الشيطان» (ص ١٣٩)، لكن من منظور الاتصال يمكن أن يعزى صدور مثل هذه الفتوى إلى رغبة السلطة ممارسة احتكار المعرفة، والسيطرة على العقول؛ فالمعرفة بحد ذاتها قوة يمكن أن تتحدى السلطة لأنها تبدد الجهل وتعرّف الناس بحقوقهم ليطالبوا بها. وهذا ما حصل مع العرب، فحين طالب مفكروهم وصحفيوهم بالاستقلال ونيل حقوقهم، أقدم جمال باشا

السفاح حاكم سوريا التركي في أيار (مايو) عام ١٩١٦ على إعدام ثلاثة وثلاثين رجلاً، لا فرق بين مسلم ومسيحي، وعلقهم على أعواد المشانق في ساحتي الشهداء في دمشق وبيروت، وكان من بينهم ستة عشر صحفياً، الأمر الذي عجل في إعلان الثورة العربية الكبرى مباشرة بعد شهر واحد، إثر تلك الحادثة الأليمة التي كشفت عن نوايا الأتراك الحقيقية.

لقد خضعت البلاد العربية لحكم العثمانيين مدة أربعمائة عام (١٥١٦-١٩١٨)، وبينما كانت أوروبا ترتدي أثواب المعرفة التي جاءت بها المطابع وزاد عددها في أرجاء مدنها عن ٢٥٠٠ مطبعة قبل نهاية القرن الخامس عشر، تنشر في أنحائها حركات التنوير والإصلاح الديني والنهضة العلمية والصناعية والفكرية؛ نجد في المقابل السلطة العثمانية، ممثلة بشيخ الإسلام، تصدر فتوى خطيرة تكرس الجهل. وقد عزا العثمانيون صدور الفتوى إلى سببين: الأول، تمثل بموقف رجال الدين وخشيتهم من حدوث اضطرابات «في الدولة العثمانية...لأنهم كانوا يعتقدون أن أمن الدولة العام ربما يضطرب»؛ والثاني، بسبب الضغوط التي مارستها فئة الوراقين العاملين بالنسخ والخط الذين «أشاعوا أن طبع الكتب يتناقض مع الدين» (شقيرات: ٦٣٤)، وذلك للحفاظ على مصدر رزقهم.

> في الوقت الذي كانت أوروبا ترتدي أثواب المعرفة التي جاءت بها المطابع وتنشر حركات التنوير والإصلاح، نجد في المقابل السلطة العثمانية، ممثلة بشيخ الإسلام، تصدر فتوى خطيرة تكرس الجهل

ويُظهر تاريخ الاتصال والمعلوماتية، وعبر أربع ثورات اتصال معرفية، أن الجهات التقليدية والمحافظة كانت تقف سداً منيعاً يحول دون انتشار المعرفة بين الناس للحفاظ على مصالح تلك الجهات ومكتسباتها؛ بل عمدت تلك القوى، بعد اختراع المطبعة في أوروبا، وخاصة الكنيسة هناك، إلى ممارسة الرقابة على المطبوعات والكتب، إلا أن قوى الإصلاح بقيادة المفكرين والفلاسفة والأدباء عملت على محاربة هذا التوجه بشراسة، مما أوصل أوروبا الغربية في نهاية القرن الثامن عشر إلى نظام ليبرالي علماني يقبل النقد والشك الديكارتي العقلاني، ويشجع الحوار، وتقديم وجهات النظر المتباينة.

ثورات الاتصال الأربع

يعترف الباحثون نظريا بأن التاريخ الإنساني شهد «أربع ثورات» في الإعلام والاتصال، أحدثت تغييرات جسيمة في حياة البشر، وقادت كل واحدة إلى توسيع دائرة المعرفة. هناك ثورة الاتصال الأولى التي تمثلت في اختراع الأبجدية (أو الألفباء -The Alphabet كما يسميها الغربيون) التي أوجدها أجدادنا الكنعانيون حوالى عام ١٥٠٠ ق.م، حين طوروا الحروف التي نستعملها حاليا في البلاد العربية والغربية. وأشار (مارشال مكلوهان) إلى حجم الأثر الذي خلفه اختراع هذه الأبجدية الصوتية، فهو يعدها «تكنولوجيا فريدة من نوعها»، ويضيف: أن استعمالها كان يعني «القوة والسلطة والسيطرة على المواقع العسكرية من بعيد»؛ وأصبحت الكتابة، الوسيلة التي حددت التحول النفسي والاجتماعي في جميع المجتمعات التي مارستها. وتبنت أوروبا الحرف اللاتيني المأخوذ من الحرف الكنعاني، وبهذا نكون أفضلنا على العالم الغربي وعلمناه القراءة والكتابة.

وأسهم قدوم الثورة الثانية للاتصال، التي جاءت بالمطبعة، في نقل أوروبا من

نظام سلطوي مطلق إلى مجتمع علماني تم فيه فصل الدين عن السياسة، مجتمع يوقر النقد ويجعل من الصحافة سلطة رابعة رقابية، بل إن فيلسوفاً مرموقاً، هو برتراند راسل، اعترف بأن اختراع المطبعة كان من العوامل التي حددت الانتقال من «العصور الوسطى حتى القفزة الكبرى إلى الأمام في القرن السابع عشر»؛ فبظهورها «اتسع نطاق تداول الأفكار الجديدة إلى حد هائل، وهذا هو الذي ساعد في النهاية على هدم السلطات القديمة».

وأعقب اختراع المطبعة ثورة الاتصال الإلكتروني التي جاءت في أعقاب الكهرباء بالراديو والتلفاز، فازداد انتشار المعرفة ليشمل الذين لا يقرؤون ويكتبون (أي الأميون).

لكن قدوم الإنترنت، أدخل الناس في عصر جديد هو عصر الاتصال الرقمي الذي قاد إلى ثورة اتصالية رابعة عملت على تمكين الإنسان العادي وتقوية مركزه من خلال استخدام قنوات اتصال تبادلية، لا تخضع لرقابة السلطة. وهكذا، بدأت صفحة جديدة في تاريخ الإنسانية قادت في جوانب منها إلى ظهور الربيع العربي، بما عناه ذلك من هدم للسلطات القديمة البالية. ولأول مرة في تاريخه يصبح الإنسان العربي مشاركاً نشطاً تسمع السلطات رأيه وتتوقف عندها. وانتشرت الصحافة والمواقع الإلكترونية حاملة على صفحاتها فكراً انتقادياً وربما هجومي، مؤذنة بقدوم نظام اتصال عربي شبه ليبرالي. ومثلما كان لهذه الثورة الرقمية نتائج إيجابية، أهمها ظهور الصحفي المواطن، وتقديم وجهة نظر شعبية، كان للرقمنة جوانب سلبية، أهمها انتشار الأخبار التي تفتقر إلى المصداقية، وانتشار الشائعات.

> تأسست أول مطبعة بالحرف العربي في مدينة حلب عام ١٧٠٦ م، عند مسيحيي الطائفة الأرثوذكسية الملكية

المطبعة العربية في أوروبا

قبل صدور الفتوى الدينية التي حالت دون استخدام المطبعةَ في الدولة العثمانية، بيعت كتب مطبوعة في أوروبا في البلاد العثمانية، وتم هذا الإجراء بموجب فرمان أصدره السلطان مراد الثالث في العام ١٥٨٨، وسمح فيه للتجار الأوروبيين ببيعها. وقد طُبع القرآن الكريم في البندقية للمرة الأولى في العام ١٥٣٧، وذلك بعد أن أجازت طباعته محكمة التفتيش الكنسية. ومن أهم الكتب العربية التي نشرتها المطابع الأوروبية أيضاً: «الإنجيل المقدس»، وكتاب «القانون الثاني» لابن سينا، و«نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار» للجغرافي الإدريسي.

المطبعة: للأقليات العثمانية

سمح السلاطين للأقليات الدينية في الدولة العثمانية بإدخال المطبعة واستخدامها بعد نصف قرن تقريباً من زمن اختراعها في ألمانيا، فرخص السلطان بايزيد الثاني لليهود إقامة مطبعة خاصة بهم منذ العام ١٤٩٤، على ألاّ يُصدروا كتباً بالحروف العربية، والاقتصار على الحروف العبرانية واللاتينية، وأقاموا نتيجة ذلك مطبعتين في سالونيك وإسطنبول.

وأقام الأرمن مطبعة في مدينة سيفا عام ١٥٦٧، واليونانيون في إسطنبول عام ١٦٢٧. أما بالنسبة إلى العرب المسيحيين، فقد سمحت السلطة العثمانية لهم -

بوصفهم أقلية طائفية- باستخدام المطبعة منذ العام ١٦١٠، وكان ذلك من حسن الطالع، لأن المسيحيين العرب وظفوا المطبعة للحفاظ على جذوة الثقافة العربية فقدموا بذلك خدمة جليلة لأمتهم العربية.

مطابع العرب المسيحيين

شكّل العام ١٦١٠ بدايات الطباعة عند المسيحيين العرب، وعملت مطابع حلب والشوير وبيروت، على تعزيز نزعة المسيحيين العرب للحفاظ على شخصية مستقلة. وكما استخدمت هذه المطابع في طباعة الكتب الدينية، استخدمت أيضاً في طباعة الكتب المدرسية التابعة للكنائس، والتراثية، مما أسهم في إيجاد جيل عربي متمكن من لغته. وكانت نظرة القائمين على هذه المطابع قومية. وظهرت بعض المطابع الخاصة منذ العام ١٦٤١، وأنشأ بلفنطي واحدة في حلب، وقامت بطباعة ديوان ابن الفارض، ثم كتاب «المزامير». وابن الفارض شاعر صوفي له مكانته في الأدب العربي، وقد عاش في القرن الثاني عشر، ومن شعره الصوفي قصيدته التي يتغنى فيها بالذات الإلهية:

قلبي يُحدثُني بأنك مُتلفي

روحي فِداك، عرَفت أم لم تعرفِ

مع مطلع القرن الثامن عشر، أدرك المتنورون العثمانيون أهمية الطباعة ودورها في نشر المعرفة، فصدرت فتوى ألغت الأولى، وأفتى شيخ الإسلام يكيشهر لي عبدالله أفندي أثناء مشيخته (١٧١٨-١٧٣٠) بجواز افتتاح مطبعة

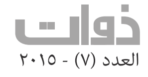
لكن المطابع ذات الأثر الأكبر، ظهرت منذ مطلع القرن الثامن عشر، وكان لها دور مؤثر في النهضة في المشرق العربي، ومن أبرز هذه المطابع: مطابع حلب، ومطابع الموارنة في جبل لبنان.

مطبعة حلب للأرثوذكس الملكيين

تأسست أول مطبعة بالحرف العربي في مدينة حلب عام ١٧٠٦ م، عند مسيحي الطائفة الأرثوذكسية الملكية. وتخصصت هذه بطباعة كتب الدين المسيحي، وقدمتها بأعداد وفيرة وبنصوص عربية فصيحة مترجمة عن السريانية واليونانية. وقد عمل بطريرك أنطاكية اثناسيوس الثالث دباس، الذي اشترى المطبعة من بوخارست، على طباعة الإنجيل باللغة العربية، ذاكراً في المقدمة التي وضعها أنه شرع بطبعه وتنقيحه كلمة كلمة. وقد استعانت المطبعة بالمنح والهبات، فمثلاً مول طبعة الإنجيل عام ١٨٠٧ جان مازبا، قائد جيش الانكشارية في بلاد الفلاخ. وتوقفت مطبعة حلب عن العمل عام ١٨٦٦، وهو الوقت الذي بدأت تظهر فيه المطابع الخاصة في لبنان، مثل مطبعة خليل خوري صاحب جريدة (حديقة الأخبار)، التي تعتبر بداية الصحافة الحقيقية في المشرق العربي (مروة).

مطابع الموارنة

بعد دير قزحيا وحلب، دخلت المطبعة إلى جبل لبنان عند مسيحي منطقة الشوير ابتداء من عام ١٧٣٣ (صابات، ١٩٦٦: ١٨). وكان الموارنة قد تعرفوا على الطباعة من قبل حين طبعت لهم روما مخطوطاتهم.





كان من نتائج دخول الكتب المطبوعة بالعربية أن حدث تحول سياسي اجتماعي مهم عند الموارنة. لقد رأوا أن الكتب المطبوعة ستسهم في توحيد نصوصهم الدينية بعد أن تعددت في الأديرة المختلفة. وسياسياً، تعززت نزعتهم الاستقلالية بعد تحالفهم مع الأمير الدرزي فخر الدين المعني الثاني في القرن السابع عشر، الذي قاد حركة استقلال جبل لبنان عن الباب العالي. وهكذا رأى الموارنة في «الكتاب المطبوع وسيلة ناجعة لتكريس هويتهم إزاء الطوائف المسيحية [الأخرى] وبصفة عامة للحفاظ على شخصيتهم واستقلالهم عن المسلمين» (قدورة: ٧٠) وعن روما. وهكذا عززت الطباعة عند الموارنة استقلاليتهم الدينية والسياسية والثقافية على حد سواء.

وعلى الرغم من أن هذه المطابع أسهمت في الجدل الديني الطائفي بين الروم الأرثوذكس والملكيين الكاثوليك، لكنها «كانت متفقة على هدف واحد، وهو مقاومة الضلالات الدينية والانحرافات»، ونشر كتب تنطوي على تقديم نصوص «دينية سليمة من الأخطاء» (قدورة: ٢٣٧). واستخدمت هذه المطابع في طباعة الكتب المدرسية التابعة لهذه الكنائس، ما أسهم في إيجاد جيل عربي متمكن من لغته. وأصدر العرب المسيحيين الصحف وعملوا على حفظ التراث واعتنوا باللغة العربية وكانوا من رواد النهضة. وفي هذا تقول الباحثة فدوى نصيرات: «من المسلم به



أن الصحافة العربية قامت على أكتاف المسيحيين العرب في بلاد الشام ومصر... الأمر الذي حقق أكبر الأثر في نشر الوعي القومي»، ثم تعدد الباحثة نصيرات الموضوعات التي ركزت عليها صحفهم، وهي: «اللغة العربية وضرورة التمسك بها، والفخر بالجنس العربي والتغني بأمجاده وأخلاقه، والدعوة إلى الألفة والتضامن، ورفع شعار: حب الوطن من الإيمان، وتعليم المرأة العربية ودورها في تنمية الوعي القومي، والدعوة إلى الأخذ بأسباب تقدم الأمم المتمدنة والأخذ بالتربية القومية» (ص ٦٨).

فتوى تسمح

مع مطلع القرن الثامن عشر، أدرك المتنورون العثمانيون أهمية الطباعة ودورها في نشر المعرفة، وذلك حين لاحظوا نهضة أوروبا وتقدمها في جميع المجالات، فصدرت فتوى ألغت الأولى، وأفتى شيخ الإسلام يكيشهر لي عبدالله أفندي أثناء مشيخته (١٧١٨-١٧٣٠) بجواز افتتاح مطبعة تطبع بالحرف العربي في إسطنبول. وجاءت الفتوى نتيجة ضغوط من الصدر الأعظم إبراهيم باشا الذي كان راغباً مع السلطان أحمد الثالث (١٧١٧-١٧٣٠) في إدخال إصلاحات للبلاد.

أجازت الفتوى طباعة الكتب، ما عدا تلك المتعلقة بالشريعة والفقه الإسلامي. بعد ذلك قام الصدر الأعظم، الذي كان متحمساً للمشروع، بإقناع السلطان أحمد الثالث الذي وافق بدوره على إصدار فرمان (خط همايون) يسمح بإنشاء المطبعة في تموز ١٧٢٧.

وصدر ترخيص المطبعة باسم إبراهيم متفرقة وسعيد شلبي قبل أن يستقل متفرقة بها. وهكذا عُدّ متفرقة، وهو مجري الأصل، مؤسس أول مطبعة عربية في إسطنبول.

ثورة باترونا وإحراق المطبعة

تضمّن أول كتاب طبعه إبراهيم متفرقة وشريكه، نشْر الفرمان السلطاني ورسالة وسيلة الطباعة التي واكبت صدور الفتوى الدينية وتقريظ علماء الدين لها، حتى لا يتركا مجالاً لمتقول بعدم شرعية ما أقدما عليه. وتم تأسيس مطبعة (دار الطباعة العامرة) في منزل متفرقة. وكان أول كتاب طُبع على هذه المطبعة كتاب الصحاح للجواهري مع ترجمته للتركية في العام ١٧٢٨. وواصلت المطبعة طباعة الكتب حتى العام ١٧٣٠، حين قامت ثورة بقيادة ضابط البحرية خليل باترونالي (الذي عُرفت الثورة باسمه) وشارك فيها المتشددون الذين لم ترق لهم التجديدات على الطريقة الأوروبية، وكذلك الخطاطون والعاطلون عن العمل. وكان من نتائج الثورة: عزل السلطان أحمد الثالث، وقتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا، وعزل شيخ الإسلام عبد الله، وتدمير المطبعة.

وهكذا، دفع الذين كانوا وراء الفتوى ثمناً باهظاً. لكن من يستطيع وقف حركة التاريخ؟ فبعد عقد من الزمان، أعيد بناء المطبعة، وبقيت تعمل بصورة متقطعة حتى العام ١٧٨٣. ولم يزد عدد الكتب التي طبعت، وحتى العام ١٨٢٨، أي بعد مرور قرن على صدور الفتوى، عن ٩٨ كتاباً؛ أي بمعدل كتاب واحد في السنة، وهذا من أوضح الأدلة على تخلف الإمبراطورية العثمانية وعدم مسايرتها للنهضة الحديثة

(سليمان الموسى). وفي العام ١٨٣١ قامت الدولة العثمانية بتأسيس مطبعة رسمية تابعة لوزارة المعارف باسم (المطبعة العامرة) استمرت في العمل حتى سقوط الدولة العثمانية مع نهاية الحرب العالمية الأولى.

الصحافة العربية

بدأ تأثير الصحافة العربية يظهر للعيان اعتباراً من منتصف القرن التاسع عشر، بعد أن ظهرت صحف شعبية -غير رسمية تماماً- ذات تأثير، مثل صحيفة (حديقة الأخبار) في بيروت لصاحبها خليل خوري، وصحيفة (الوقائع المصرية) في القاهرة، و(الرائد) التونسية، هذه الصحف التي أشرف عليها بعض قادة الفكر من مثل؛ أحمد فارس الشدياق ورفاعة الطهطاوي ومحمد عبده. وكان من آثارها الجليلة أنها دعت إلى الاستقلال والحرية والنهوض.

وتكشفت نوايا السلطة العثمانية حين وقفت تلك الصحافة سداً منيعاً في وجه عملية التتريك، مما حدا بجمال باشا السفاح، حاكم سوريا التركي، إلى الانتقام من قادة الفكر الصحفيين الشاميين، فعلقهم على أعواد المشانق في ٥ أيار عام ١٩١٦، وبقيت صرخاتهم ديناً على الصحفي العربي أينما كان. وهزمت جحافل جيش الثورة العربية، التي بلغ عدد محاربيها حوالي المئة ألف، الأتراك وأخرجتهم من المشرق العربي بالتعاون مع حلفاء بريطانيين وفرنسيين، تنكروا لوعودهم للشريف الحسين بن علي قائد الثورة، وعقدوا سراً اتفاقية سايكس بيكو، وأعطوا وعد بلفور.

يوجز أديب مروة أثر الصحافة العربية حتى الحرب العالمية الأولى، بقوله إنها عملت على «تحرير الأمة من السلطنة العثمانية...وإيقاظ الهمم...وحاربت الجهل والفقر والحجاب، ثم ناضلت لتحرير الأم والأمة، وكافحت لإصلاح اللغة وقد أدركتها الركاكة، ثم حاربت الطغيان والعدوان والإقطاعية والحكام الطغاة...» (ص ١٤٣).

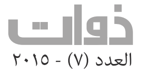
إعلام القرن العشرين

> استطاعت الأنظمة العربية أن تحتوي الصحافة العربية بعد الاستقلال من خلال قوانين المطبوعات والنشر، ومارس وزراء الإعلام العرب الرقابة المشددة عليها

استطاعت الأنظمة العربية أن تحتوي الصحافة العربية بعد الاستقلال من خلال قوانين المطبوعات والنشر، ومارس وزراء الإعلام العرب الرقابة المشددة عليها، إلا من جيوب هنا وهناك، طيلة القرن الماضي. وبرز دور الإعلام المؤثر، الإذاعي ثم التلفازي، المسيطر عليه من الحكومات، على المواطنين العرب، بسبب ارتفاع نسبة الأمية، مما أغرق العرب في شفاهية الفعل ورد الفعل (عصام الموسى، ٢١١٤، ص)، فقاد ذلك، خاصة بعد هزيمة عام ١٩٦٧، إلى ظهور مواطن مقهور سلبي غير مشارك وضعيف الانتماء. وتحركت الدول الخليجية لملء الفراغ، فأنشأت محطات ركزت على الترفيه، بما يعنيه ذلك من تخدير لعقل المتلقي. وفي هذه المرحلة، حين كان الإعلام مسيطراً عليه من الدولة، كثرت البرامج الترفيهية والدينية، وقلت برامج الحوار السياسي والفكرية.

وقد فشلت غالبية الأنظمة الإعلامية العربية حتى التسعينيات من القرن الماضي من استيعاب الآثار المتوقعة للثورة الرابعة في الاتصال، فوقع بعضها فريسة سهلة أمام قوة الإعلام الرقمي، الذي عمل على تسليح المتلقي العربي بأمرين: أولاً، التعرض لأفكار جديدة ناقدة للوضع القائم تحمل وجهات نظر ناقدة بقوة. وثانياً، توفير أجهزة متطورة (كالهاتف الذكي) مكنت المواطن العادي من التواصل والتنظيم عبر شبكات التواصل الاجتماعي.

وبهذا هيأت الثورة الرقمية Digitalism لقدوم ربيع عربي عاصف، لم تتنبه إليه معظم الأنظمة، فسقطت. قلة فقط من الأنظمة العربية، ومنها الأردن، استوعبت الأمر في وقت مبكر (منذ عام ١٩٨٩)، فحررت إعلامها مما جنبها عصف الربيع. وصار لزاماً على جميع الأنظمة أن تعيد حساباتها، وتتحنى أمام تطلعات المواطن. وهكذا، لعبت تكنولوجيا الاتصال الرقمية، في توعية المواطن بحقوقه، فساعد ذلك تدريجياً على إيجاد مواطن عربي مشارك، ينفض السلبية عنه، ويطالب بحقوقه حتى الموت في سبيلها.



فوضوية الإعلام الرقمي

وكما كان للإعلام الرقمي آثار إيجابية، فهناك آثار سلبية أيضاً. لقد وفرت تكنولوجيا الاتصال الرقمي الفرصة أمام كل فرد أن يصبح مراسلاً إعلاميا: يلتقط صورة حدث ما بهاتفه ويبعث به لوسائل الإعلام، فيصبح خبراً. وظهرت مواقع إلكترونية عديدة، إضافة إلى قنوات تلفزية قاربت الألف محطة، بعضها خاضع للحكومات، وبعضها مستقل أو شبه مستقل، إضافة إلى قنوات إعلام دولية كثيرة. ودخل على خط الصحفيين المدربين تدريباً اكاديمياً مهنياً يطبقون قواعد المصداقية والموضوعية، صحفيون من نوع جديد، أي «الصحفيون المواطنون»، وخاصيتهم أنهم لا يأبهون بقواعد العمل الصحفي، فامتلأت الأجواء بالأخبار الخفيفة السطحية. وكان من بينهم من استغل الوضع لتقديم أجندات خاصة، سياسية أو دينية أو اجتماعية، واختلط الحابل بالنابل. وأسهمت هذه الصحافة في بلبلة المتلقي، وصارت الأجواء تمور بالشائعات وأخبار النجوم والمناكفات، وأيضا الفتاوى.

الخاتمة

كان من أخطر نتائج فتوى شيخ الإسلام العثماني حدوث فجوة ثقافية بين العرب والغرب الأوروبي تقدر بأربعة قرون، جمد فيها الفكر والثقافة والإبداع، مما انعكس سلباً على المواطن العربي. وقاد الجهل إلى التخلف في جميع المجالات السياسية والثقافية والفكرية. وتواصلت المواجهة بين الفكر القديم الذي تبنته الدولة العثمانية، وبين دعاة التحرر والقومية. لكن مما يبعث على التفاؤل، أن إرهاصات الربيع العربي، بدأت غبارها ينجلي عن عقلانية تغلب في جوانب كثيرة المنطق على العاطفة، وتقود لقلب صفحة جديدة، تكون مشرقة حقاً، تعيد للعرب ألقهم التاريخي كشعب عريق له حضارة رائدة.

مراجع المقالة:

- شقيرات، أحمد صدقي. تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني (١٤٢٥-١٩٢٢). المجلد الأول، إربد، الأردن، ٢٠٠٢
- صابات، خليل. تاريخ الطباعة في الشرق العربي. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦
- قدورة، وحيد. بداية الطباعة العربية في إسطنبول وبلاد الشام: تطور المحيط الثقافي (١٧٠٦-١٧٨٧). الرياض- تونس: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية/مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، ١٩٩٣
- محافظة، علي. الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (١٧٩٨-١٩١٤). بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٤
- مروة، أديب. الصحافة العربية: نشأتها وتطورها. بيروت: منشورات عويدات، ١٩٧٠
- الموسى، سليمان. الحركة العربية: المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة (١٩٠٨-١٩٢٤). بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٧
- الموسى، عصام سليمان. «الرقمنة والربيع العربي في الأردن: دراسة حالة». مجلة المستقبل العربي، العدد ٤١٠، تموز/يوليو، ٢٠١٢





الدكتور عبدالرحمن الكيلاني لمجلة «ذوات»:

التعجل في الفتوى أمارة على الجهل والاستخفاف بالشريعة

حاورته: منى شكري

أكد أستاذ الفقه وأصوله – كلية الشريعة– الجامعة الأردنية الدكتور عبدالرحمن الكيلاني أن الأصل في المفتي أن يكون عالماً للأمة كلها بمختلف فئاتها واتجاهاتها وانتماءاتها الفرعية، وأن تكون فتاواه مبنية وفق ما توجبه الأدلة

الشرعية لا وفق ما تقتضيه إملاءات السلطة السياسية، أو ما يقتضيه كسب عواطف الناس وحبهم، أو ما تغري به الرغبة من استرضاء اتجاه أو تيار معين، لأن هذا كله من اتباع الهوى في الفتوى.

وحذر الكيلاني في حوار أجرته معه مجلة «ذوات» من التعجل في الفتوى دون استكمال شروطها وضوابطها، فذلك «اجتراء على الله وسبب لإفساد المجتمعات ونشر الفتنة فيها»، منوها إلى أن التعجل في الفتوى أمارة على الجهل والاستخفاف بالشريعة، وسبب في إنتاج الأقوال الشاذة التي تؤدي إلى تشتيت الناس وتمزقهم وحيرتهم، وإلى إثارة الفتن والمنازعات بينهم؛ فكم من الفتاوى السريعة التي أدت إلى هدم الأسرة والتفريق بين الرجل وزوجته، أو الأخ وأخيه، أو أدت إلى إثارة الفوضى والقلق في المجتمعات الإسلامية، أو سببت في تشويه صورة الإسلام وهديه وسماحته.

ويأخذ الكيلاني على بعض المفتين إخلاء المرأة من جانبها الإنساني، وعدم اعتبارها شقيقة الرجل وصنوه في التكليف والتكريم، والنظر القاصر إليها باعتبار جسدها فقط، وأنها مجرد فتنة تمشي على الأرض، ما أدى إلى التشديد عليها في الأحكام والمبادرة إلى تحريم كل ما يتعلق بأفعالها وفاعليتها في المجتمع بحجة سد الذرائع، كتحريم دراستها في المدارس والجامعات، وتحريم عملها الشريف في الوزارات والمؤسسات، وتحريم قيادتها للمركبات والسيارات، إلى غيرها من صور التحريم التي لحقت المرأة بحجة سد ذرائع الفساد!!.

وهذا، في تقدير الكيلاني، نظر فقهي قاصر لم يراع فيه أصحابه ضوابط سد الذرائع، وربما لم يتنبهوا إلى أن تحريم الحلال هو كتحليل الحرام؛ فالمرأة صنو الرجل في الإنسانية، ولا ينبغي التضييق عليها لفساد بعض الرجال، بل يعالج الفساد في أصله ومصدره، ولم ينظروا إلى حال المرأة في عهد النبوة وعهد الخلفاء الراشدين، وتكريمها العظيم وإسهامها في كل مجالات الحياة، وحضورها في كل المواطن العصيبة مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وحمل الكيلاني حكام المسلمين جزءاً كبيراً من انتشار التيار المتطرف في الفتاوى؛ لأن كثيراً منهم قد حاربوا الفهم السليم للإسلام، وضيقوا على دعاته وعلمائه المخلصين وأبعدوهم عن المنابر والمساجد ومجالس العلم والإرشاد والإفتاء، وحرموهم من فرصة التواصل مع الشباب والأمة، وشوهوا صورتهم في أذهان الناس من خلال وسائل الإعلام المختلفة، فتركوا الأمة وشبابها نهباً مستباحاً للتطرف والعبثية في الفهم، والانتقائية للنصوص والأفهام، وإذا غاب العلماء الراشدون، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا.

*** ما هي المواصفات التي يجب أن يتمتع بها المفتي؟ وما هي أبرز ضوابط الفتوى؟**

المفتي هو المخبر عن حكم الشرع في الواقعة التي يسأل عنها، وهي مهمة عظيمة، لا بد لمن أراد أن يضطلع بها أن تتوافر فيه جملة من الشروط والأوصاف التي يمكن إجمالها في ثلاثة أمور أساسية، وهي:

المفتي هو المخبر عن حكم الشرع في الواقعة التي يسأل عنها، وهي مهمة عظيمة، لابد لمن أراد أن يضطلع بها أن تتوافر فيه جملة من الشروط والأوصاف

أولا: التأهيل العلمي:
وذلك بأن يكون عالماً بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، ومواطن الإجماع والخلاف بين الفقهاء، ومقاصد الشريعة الإسلامية وقواعدها العامة، وأصول الاستنباط للأحكام الشرعية.

ثانيا: الفقه بالواقع: أي أن يكون عالما بما تجري عليه حياة الناس في مجالاتها المختلفة الاجتماعية والاقتصادية والأسرية والسياسية وغيرها، وما استقر عليه الناس من عادات وتقاليد وأعراف، وما استجد من حوادث ونوازل.

وهذا يعني أن على الفقيه أن يكون مستوعباً لطبيعة الواقع الذي يريد أن يطبق عليه الأحكام الشرعية المختلفة، وأن يكون هذا الاستيعاب شاملاً لجميع جوانب الحياة، وأن يتفاعل مع المجتمع، ويعرف أمراضه وعلله ومشاكله وقضاياه المختلفة.

ثالثا: العدالة: أي أن يتحلى الفقيه بأخلاق العالم، من التقوى والأمانة والعفة والاستقامة والغيرة على حرمات الله والجرأة في قول كلمة الحق والصدق في القول والفعل، وغيرها من الأخلاق التي ينبغي أن يتحلى بها حامل العلم الشرعي، ولقد نبّه الإمام أحمد، رضي الله عنه، إلى جملة الخصال التي ينبغي تحققها في المفتي بقوله: «لا ينبغي للرجل أن ينصِّب نفسه للفتيا حتى تكون فيه خمس خصال، أولها: أن يكون له نية -أي الإخلاص، فإن لم يكن له نية لم يكن عليه نور ولا على كلامه نور، والثانية: أن يكون له علم وحلم ووقار وسكينة، والثالثة: أن يكون قوياً على ما هو فيه ومعرفته، والرابعة: الكفاية (أي من العيش) وإلا مضغه الناس. الخامسة: معرفة الناس»، وهو ما يمكن التعبير عنه بفقه الواقع.

أما ضوابط الفتوى:
فإن أهم ما يجب أن يتحقق في الفتوى هو أن تصدر ممن هو أهلٌ لها، وهو العالم الفقيه الذي تحققت فيه الشروط والأوصاف السابقة، وأن تقع الفتوى في محلها حيث تكون موافقة للأدلة الشرعية ومقاصد الشريعة الإسلامية، ومراعية لطبيعة الواقع ومقتضياته، وبعيدة عن الأقوال والآراء الشاذة التي تخالف القطعيات وما هو معلوم من الدين بالضرورة.

*** لماذا برأيك يستمع الناس لمفتين بعينهم دون سواهم، حتى أصبحنا نرى مفتيا للتيار السلفي الجهادي، وآخر للوسطيين وهكذا؟**

السؤال مركب من جزئين لا تلازم بينهما، فقبول الناس لمفتٍ دون غيره لا يعني بالضرورة أن يكون هذا المفتي محسوباً على اتجاه معين، كما أن الرجوع إلى مفت معين والالتزام بقوله وفتواه ليس بالضرورة أن يكون بدافع من الانتماء الفرعي لاتجاه فكري خاص، فكثيرا ما يكون استماع الناس لمفتٍ معين وقبولهم له وأنسهم به راجعاً إلى ثقتهم بعلمه وخلقه، وتقديرهم لمواقفه التي رأوا فيها الصدق والأمانة والجرأة في قول كلمة الحق، ومعرفتهم بنزاهته واستقامته وبعده عن التزلف والنفاق، وهؤلاء هم العلماء الربانيون الذين يحظون باحترام الناس وتقديرهم، وهم الذين أثنى عليهم الله تعالى في كتابه الكريم في قوله سبحانه: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} الأحزاب /(٣٩)

وإن الأصل في المفتي أن يكون عالماً للأمة كلها بمختلف فئاتها واتجاهاتها وانتماءاتها الفرعية، وأن تكون فتاواه مبنية وفق ما توجبه الأدلة الشرعية لا وفق ما تقتضيه إملاءات السلطة السياسية، أو ما يقتضيه كسب عواطف الناس وحبهم، أو ما تغري به الرغبة من استرضاء اتجاه أو تيار معين، لأن هذا



كلـه مـن اتبـاع الهـوى في الفتـوى.

عـلى أن حالـة التمـزق الـتي تعيشـها الأمـة اليـوم والتعصب الأعمى لاتجاهات فكريـة معينـة قـد يحمـل عـلى التأثـر بفتـاوى بعـض العلمـاء دون غيرهـم، كمـا أن للإعـلام دوره في تسـليط الضـوء عـلى علمـاء معينـين وإبرازهـم والترويـج لهـم وقبولهـم مـن قبـل جمهـور النـاس.

*** اليـوم نشـهد تصريحـات مـن مثقفـين أو كتـاب يـردون عـلى الفتـاوى أو يخوضـون في قضايـا فقهيـة مـن بـاب «حريـة الـرأي»، مـا رأيكـم بهـذه الظاهـرة ومـا هـي أسـبابها؟ وهـل نحـن أمـام «فـراغ أو فقـر فقهـي»؟**

إن مـن شروط نهضـة الأمـم وتقدمهـا احـترام التخصـص والرجـوع إلى المختصـين والمؤهلـين في كل علـم مـن العلـوم، وقـد أرشـد القـرآن الكريـم إلى ضرورة اعتبـار قـول المختصـين وأهـل العلـم والـرأي والرجـوع إليهـم، باعتبارهـم الخـبراء والأعلـم في تخصصاتهـم، فقـال الله تعـالى: {فَاسْـأَلُوا أَهْـلَ الذِّكْـرِ إِنْ كُنْتُـمْ لَا تَعْلَمُـونَ} النحـل /(٤٣)

وقـد وضحـت في مـا تقـدم: أنـه لا بـد لمـن يريـد أن يفـتي النـاس في أحـكام الـشرع أن يكـون مؤهـلاً علميـاً، وعالمـاً بالأدلـة الشرعيـة وطرائـق الاسـتنباط منهـا وكيفيـة التعامـل معهـا، وأن يميـز بـين ناسـخ القـرآن ومنسـوخه، وعامـه وخاصـه، ومطلقـه ومقيـده، وعبارتـه وإشـارته، ومنطوقـه ومفهومـه، إلى غيرهـا مـن الأصـول والقواعـد الـتي قـد تغيـب عـن غـير المتخصـص بعلـوم الشريعـة.

وإن مـن المؤسـف أن البعـض يعـترض عـلى هـذا بالقـول: إنـه ليـس في الإسـلام رجـال ديـن وأن الديـن للجميـع، لكـن هـؤلاء يتناقضـون مـع أنفسـهم، لأنهـم يحترمـون التخصـص في سـائر العلـوم الأخـرى، بينمـا يجعلـون علـم الشريعـة حمـى مسـتباحاً للجميـع، فعندمـا يمرضـون يتجهـون للطبيـب، لأن الطبيـب هـو الشـخص المؤهـل للنظـر في الأمـراض والعلـل، وإذا أعيـاه ابنـه في تعلـم مـادة مدرسـية أرسـله إلى أسـتاذ يـدرس تلـك المـادة ولا يرسـله إلى النجـار أو الحـداد، وإذا تعطلـت سـيارته أخذهـا للمختـص بإصلاحهـا، ولا يذهـب بهـا للصيـدلاني مثـلا! فكيـف يـرضى هـؤلاء في التخصـص في جميـع العلـوم، ثـم لا يرضونـه عندمـا يتعلـق الأمـر بالأحـكام الشرعيـة وتفسـير القـرآن الكريـم وشرح الأحاديـث النبويـة الشريفـة!

> الأصل في المفتي أن يكون عالماً للأمة كلها بمختلف فئاتها واتجاهاتها وانتماءاتها الفرعية، وأن تكون فتاواه مبنية وفق ما توجبه الأدلة الشرعية لا وفق ما تقتضيه إملاءات السلطة السياسية

إنـني لا أرى أن السـبب في ذلـك هـو الفـراغ الفقهـي؛ فالأمـة غنيـة بالعلمـاء والمختصـين في العلـوم الشرعيـة والوصـول إليهـم والرجـوع لهـم قـد أصبـح سـهلاً وميسـوراً، حـتى إن بعـض القنوات الفضائيـة قـد خصصـت نافـذة خاصـة للفتـاوى الـتي يتـولى الإجابـة عليهـا صفـوة مـن العلمـاء والمختصـين في علـوم الشريعـة الإسـلامية، هـذا فضـلا عـن عـشرات المواقـع الإلكترونيـة الموثوقـة والمتخصصـة في الإجابـة عـلى قضايـا النـاس ومسـائلهم المختلفـة.

ولعـل السـبب في خـوض غـير المتخصصـين في أمـور الفتـوى هـو الجهـل بطبيعـة علـوم الشريعـة ومـا تحتاجـه مـن تخصـص دقيـق وتأهيـل علمـي عـال مـن أراد أن يتحـدث في أحـكام الشريعـة ومعانيهـا ودلالات النصـوص الشرعيـة ومعانيـه.

*** هـل تـرى أن انتشـار مـن يتصـدون للفتـوى في اليوتيـوب ومواقـع التواصـل والفضائيـات ظاهـرة صحيـة؟ ومـا هـي أسـبابها برأيـك؟**

إن انتشـار ظاهـرة الفتـوى عـلى مواقـع التواصـل والفضائيـات هـي ظاهـرة صحيحـة إذا انضبطـت بضوابـط الفتـوى وشروطهـا؛ فالنـاس بحاجـة إلى معرفـة أحـكام دينهـم في قضاياهـم المختلفـة، وقـد أصبحـت الفضائيـات ومواقـع التواصـل مـن أساسـيات التواصـل الـتي تيـسّر عـلى النـاس الكثـير مـن الوقـت والجهـد، ولكـن الضابـط في ذلـك أن يكـون المفـتي الـذي يبـين للنـاس الحكـم الشرعـي أهـلاً لذلـك، وأن يكـون عـلى درجـة مـن العلـم الـذي يمكّنـه مـن الإجابـة عـلى قضايـا

الناس المختلفة، وأن يأخذ بالاعتبار عند بيانه للأحكام الشرعية اختلاف أعراف الناس وعاداتهم، فكثير من الأحكام الشرعية مبنية على الأعراف المتغيرة، وهذا يفرض على المفتي أن يستفسر من المستفتي عن عرف بلاده في مثل تلك المسائل، وأن يميز بين الفتوى العامة والفتوى الخاصة بحالة معينة أو شخص معين، فإذا أفتى بفتوى لسائل له ظرفه الخاص، فعليه أن يبين ذلك ويؤكد عليه؛ لأن مناط الحكم يكون عند هذا الشخص مختلفاً عن غيره، فما يجوز له قد لا يجوز لغيره، فيختلط ذلك على الناس بسبب ذلك.

وإن من أهم هذه الضوابط أيضاً: عدم التعجل في الحكم على أفعال الناس، فالعديد من المسائل تحتاج إلى دراسة ونظر ومشاورة، وربما تحتاج إلى اجتهاد جماعي، ولا يعيب المفتي لو قال لا أدري، أو هذه المسألة تحتاج إلى مراجعة ودراسة.

ولعل من الأخطاء العلمية التي يقع فيها بعض المفتين عبر القنوات الفضائية التعجل في إصدار الأحكام في القضايا الشائكة والمشكلة التي تحتاج إلى قدر من التريث والتمهل، وهنا يتحول الإفتاء عبر الفضائيات إلى ظاهرة مَرضية بدلاً من أن يكون ظاهرة صحية نظراً لعدم انضباطه بشروط الفتوى الراشدة، وهنا أذكر بأن إمام دار الهجرة مالك بن أنس، رضي الله عنه، لم يتهيب من قول لا أدري، بالرغم من مكانته وعلمه وفضله، رضي الله عنه، حيث سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري، وكان يقول للرجل يسأله المسألة: اذهب حتى أنظر في أمرك، وذلك حتى يتحقق من المسألة ويتثبت منها، ولأجل هذا قيل: إذا أغفل العالم قول لا أدري أصيبت مقاتله.

*** ما هي مخاطر الفتاوى السريعة والشاذة على المجتمعات الإسلامية والعربية برأيك؟**

إن التعجل في الفتوى دون استكمال شروطها وضوابطها هو تعجل في اقتحام أبواب النار واجتراء على الله تعالى وسبب لإفساد المجتمعات ونشر الفتنة فيها، فأجرأ الناس على الفتوى هو أجرؤهم على النار، وإن على المفتي أن يعلم أنه موقعٌ عن الله تعالى في فتواه، والتعجل في الفتوى أمارة على الجهل والاستخفاف بالشريعة، وسبب في إنتاج الأقوال الشاذة التي تؤدي إلى تشتيت الناس وتمزقهم وحيرتهم، وإلى إثارة الفتن والمنازعات بينهم؛ فكم من الفتاوى السريعة التي أدت إلى هدم الأسرة والتفريق بين الرجل وزوجته، أو الأخ وأخيه، أو أدت إلى إثارة الفوضى والقلق في المجتمعات الإسلامية، أو سببت في تشويه صورة الإسلام وهديه وسماحته، واتخذت وسيلة للطعن في الدين والتشكيك في حقائقه والنيل منه من قبل أعدائه وخصومه والمتربصين به.

> كما قرر العلماء مبدأ سد الذرائع إذا كانت الوسيلة تؤدي إلى مفسدة قطعية أو غالبة، فإنهم قرروا مبدأ فتح الذرائع

لأجل ذلك، فالواجب التحذير من مثل تلك الفتاوى الشاذة من قِبل العلماء الراشدين، حتى يكون الناس على حذر منها ومن اتباع أصحابها.

وهنا أقول: إنه لا بد من نشر ثقافة الفتوى والاستفتاء بين الناس من خلال البرامج الإعلامية والتعليمية، وإدخال أدب الفتوى وأصول الإفتاء إلى مفردات المساقات والمواد التي يدرسها الطلبة في المعاهد والجامعات، حتى يتضح للجميع ضوابط الفتوى الراشدة وأصول القول الفقهي المعتبر، وكيفية التمييز بين الخلاف السائغ بين العلماء الذي يستند إلى الأدلة الصحيحة، والذي لا ينكر فيه على المخالف، وبين الفتاوى الشاذة التي لا تستند إلى أي دليل شرعي معتبر، والتي ينكر على أصحابها.

*** ألا ترى أن كثيراً من الفتاوى فيها إساءة للدين وتضييق على الناس بحجة ما يعرف بسد الذرائع؟**

مبدأ سد الذرائع مبدأ شرعي عظيم وأصلٌ معتبر من أصول الشريعة، ووسيلة لحفظ الأحكام الشريعة عن التلاعب بها أو انحرافها عن مقصدها الذي شرعت من أجله، وهو يعني منع المباحات التي يتوصل بها إلى مفاسد أو محظورات.

وإن الفقيه المتبصر بنتائج الأفعال ومآلاتها، يعرف كيف يطبق هذا الأصل وكيف يجريه في المواطن التي تحققت فيها شروطه وضوابطه، حيث يكون الإفضاء إلى المفسدة والمحظور، لا محالة، قطعاً أو غالباً، أو تكون مفسدة الفعل أرجح مما قد يترتب على الوسيلة من المصلحة.

وأود أن أشير إلى أن العلماء، كما قرروا مبدأ سد الذرائع إذا كانت الوسيلة تؤدي إلى مفسدة قطعية أو غالبة، فإنهم قد قرروا مبدأ فتح الذرائع إذا كانت الذريعة تفضي إلى مصلحة راجحة أو كان ثمة حاجة إلى فتحها؛ أي أن كما ينبغي للفقيه أن يراعي أصل سد الذرائع الذي يعبر عن مبدأ الاحتياط في الدين، فإن عليه أيضا أن يراعي أصل فتح الذرائع والاستحسان الذي يعبر عن مبدأ رفع الحرج في الدين، فيوازن الفقيه بين مبدأي الاحتياط ورفع الحرج اللذين هما جناحا الشريعة، حتى لا يقع في التشديد على الناس وتنفيرهم من الشريعة بالإفراط في تطبيق سد الذرائع بمنع كل مباح يؤدي إلى مفسدة، كما لا يقع في التفريط في الاستحسان فيؤدي إلى تمييع الدين وانحلال التكليف بما يفرغ الدين من مضمونه وقيمه السامية، وإن من الخطأ أن يطبق الفقيه أصل سد الذرائع فقط، وألا يهمل اعتبار الشق الآخر، وهو أصل فتح الذرائع والاستحسان الذي يرفع الحرج عن الناس، ويراعي حاجاتهم ومصالحهم المختلفة.

*** كيف تفسّر تنامي الفتاوى التي تتخذ من جسد المرأة ميداناً لها لتمعن في التحريم والتضييق عليها والانتقاص من شأنها كما يرى البعض؟**

هذا السؤال يجيب عنه بشكل إجمالي السؤال السابق؛ فهذه صورة من صور التعسف في سد الذرائع، ومما يستقبح فيه إخلاء المرأة من جانبها الإنساني وعدم اعتبارها شقيقة الرجل وصنوه في التكليف والتكريم، والنظر القاصر إليها باعتبار جسدها فقط، وأنها مجرد فتنة تمشي على الأرض، ما أدى إلى التشديد عليها في الأحكام والمبادرة إلى تحريم كل ما يتعلق بأفعالها وفاعليتها في المجتمع بحجة سد الذرائع، كتحريم دراستها في المدارس والجامعات، وتحريم عملها الشريف في الوزارات والمؤسسات، وتحريم قيادتها للمركبات والسيارات، إلى غيرها من صور التحريم التي لحقت المرأة بحجة سد ذرائع الفساد!!.

> إن حماية العلماء المؤهلين وتشجيعهم على أداء دورهم في المجتمع والحرص على استقلاليتهم وعدم تبعيتهم للسلطة هو أعظم ضمانة للتصدي لظاهرة الغلو والتطرف

وهذا - في تقديري - نظر فقهي قاصر لم يراع فيه أصحابه ضوابط سد الذرائع، وربما لم يتنبهوا إلى أن تحريم الحلال هو كتحليل الحرام، فالمرأة صنو الرجل في الإنسانية، ولا ينبغي التضييق عليها لفساد بعض الرجال، بل يعالج الفساد في أصله ومصدره، ولم ينظروا إلى حال المرأة في عهد النبوة وعهد الخلفاء الراشدين، وتكريمها العظيم وإسهامها في كل مجالات الحياة، وحضورها في كل المواطن العصيبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

*** ما مدى إسهام بعض الفتاوى (أو طريقة فهمها من المتلقي) في إيجاد بيئة خصبة للمتطرفين الذين يغالون في سلوكياتهم وأحكامهم على الآخرين، كأن تعطي جماعة أو شخص لنفسه حق التكفير أو استباحة القتل و«إقامة الحدود»؟**

إن من فقه المفتي أن يراعي الآثار والنتائج التي ستترتب على فتواه، وأن يلتفت إلى المآلات التي ستنبني على الحكم الشرعي الذي يبينه للناس، وهو ما يعبر عنه بـ (فقه المآل)، وإن من المؤسف أن يتصدى للفتوى اليوم من لا تتوافر فيهم أهلية الإفتاء، فأطلقوا الأحكام التي صارت وسيلة لتشويه صورة الإسلام، وسبباً لاضطهاد المستضعفين وتشريد الآمنين من بلادهم وأوطانهم، وذريعة لتفكيك المجتمعات الإسلامية ونشر الفوضى والذعر فيها، وطريقاً للإساءة إلى أحكام الجهاد في سبيل الله والتنفير من دين الله.

وهنا أقول: بأن حكام المسلمين يتحملون جزءاً كبيراً من انتشار هذا التيار المتطرف؛ لأن كثيراً منهم



قد حاربوا الفهم السليم للإسلام، وضيقوا على دعاته وعلمائه المخلصين، وأبعدوهم عن المنابر والمساجد ومجالس العلم والإرشاد والإفتاء، وحرموهم من فرصة التواصل مع الشباب والأمة، وشوهوا صورتهم في أذهان الناس من خلال وسائل الإعلام المختلفة، فتركوا الأمة وشبابها نهباً مستباحاً للتطرف والعبثية في الفهم، والانتقائية للنصوص والأفهام، وإذا غاب العلماء الراشدون، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا.

ولأجل ذلك، فإن حماية العلماء المؤهلين وتشجيعهم على أداء دورهم في المجتمع والحرص على استقلاليتهم وعدم تبعيتهم للسلطة هو أعظم ضمانة للتصدي لظاهرة الغلو والتطرف وأنجع وسيلة لمحاصرة الأفكار الفاسدة والأفهام المنحرفة والمناهج الضالة التي انتشرت في مجتمعنا وللأسف.

*** تفرز السلطة والتيارات السياسية فقهاء ومفتين على حد سواء، كيف تربط بين الفتاوى، وما يعرف اليوم بالإسلام السياسي؟**

ينبغي النظر بإنصاف إلى هذا الموضوع، فليس الإشكال في الجهة التي أفرزت هؤلاء الفقهاء والمفتين، ولكن ما ينبغي الوقوف عنده هو: هل هذا المفتي مؤهل بما فيه الكفاية للإفتاء؟ وهل هو متأثر في فتاواه وأقواله وآرائه بما تمليه عليه تبعيته الإدارية والمالية لجهة معينة، أو انتماؤه التنظيمي والفكري لتيار سياسي معين؟

إن من أعظم واجبات الفقيه: أن يكون مستقلاً عند بيانه للحكم الشرعي عن كل المؤثرات والضغوط، وأن تكون مرجعيته العليا هي الأدلة الشرعية الصريحة والصحيحة، لا الأهواء والمصالح وتحقيق المكاسب والترقي في المناصب، وأن على الفقيه أن يصرف النظر عن انتمائه السياسي وعن تبعيته الوظيفية إلى النظر إلى الأمانة التي ائتمنه الله عليها، بل إن رضوخ العالم لإملاءات السلطة وأمزجة الساسة يسقط أهليته ومكانته الشرعية، ويجعله غير مؤهل للرجوع إليه في معرفة أحكام الشريعة الإسلامية.

*** عند تضارب الفتاوى في قضايا جوهرية في حياة المسلم على المستوى الحياتي والسياسي تحديداً، كيف يخرج المتلقي من هذا المأزق، وهل استفتاء القلب هو الحل برأيك؟**

> إعداد العلماء والمفتين والدعاة فرض كفاية على الأمة، وهذا يعني أن على الأمة بمجموعها النهوض بهذا الفرض من خلال المؤسسات العلمية

إن اختلاف الآراء وتعدد الأقوال في المسائل الفقهية الظنية هو أمر طبيعي ما دامت المسألة تحتمل الاختلاف والتنوع في الفهم والنظر والاجتهاد، وهو ما يعبر عنه بالمسائل الظنية، وهي التي تكون محلاً للاجتهاد والفهم والنظر، وتقابلها المسائل القطعية التي لا تحتمل الاختلاف والتعدد في الأفهام، وينبغي ألا نضيق ذرعاً إذا اختلف العلماء في الحكم على بعض المسائل، ما دام الاجتهاد قد صدر من أهله، أي من العلماء الثقات في دينهم وعلمهم وأمانتهم، ووقع هذا الاجتهاد في محله أي في المسائل الظنية التي تحتمل الاختلاف والتعدد في الآراء.

ولكن عندما تكون القضايا جوهرية ومصيرية، فينبغي أن تضيق مساحة الاختلاف بين العلماء، وأن يكون الرأي فيها متقارباً أو موحداً، فلا يقبل الاختلاف مثلا في تقرير حق الأمة في الانتفاع بثرواتها التي منحها الله إياها، وحقها الشرعي في اختيار حكامها ورؤسائها وممثليها ونوابها، وحقها في النصح والتعبير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحقها في الإصلاح والتغيير، لأن هذه قضايا جوهرية أي قطعية لا يصح أن يختلف العلماء فيها.

نعم، يمكن أن يقع الاختلاف في وسائل ذلك وطرقه وآلياته والتدرج فيه، ولكن لا يجوز الاختلاف في أصل الأمر وجوهره وحقيقته.

وإذا تضاربت الفتاوى في القضايا الجوهرية فإن على المتلقي أن يتحرى ويتأكد من ذاك العالم الذي سيأخذ بقوله ويتبع رأيه، ولا يصح أن يعتبر مجرد الاختلاف دليلاً على جواز اتباع أي من الرأيين، فالمستفتي مكلف بأن يستفتي من يوثق بعلمه ودينه وخلقه ومسلكه، ولا عذر له في اتباع من عرف بفساد سيرته أو ضعف دينه أو قلة علمه أو تأثره بإملاءات

السلطة وميول الحكام ومصالحهم أو اشتهر بالفتاوى الشاذة والآراء الغريبة.

أما استفتاء القلب، فهو القلب اليقظ العامر بمخافة الله وخشيته التي تجعله يتجنب ما كان من قبيل المتشابهات، ويترك ما ظاهره الحل رجاءَ ألا يقع في محظور، ونص الحديث في استفتاء القلب يكشف عن هذا المعنى، إذ جاء في نصه: «عن وابصة بن معبد - رضي الله عنه – قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أريد أن لا أدع شيئًا من البر والإثم إلا سألت عنه، فقال لي: ادن يا وابصة، فدنوت منه؛ حتى مست ركبتي ركبته، فقال لي: يا وابصة، أخبرك عما جئت تسأل عنه؟ قلت: يا رسول الله، أخبرني، قال: جئت تسأل عن البر والإثم، قلت نعم، فجمع أصابعه الثلاثة، فجعل ينكت بها في صدري، ويقول: يا وابصة، استفت قلبك، والبر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في القلب، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك».

فالحديث دليل على كون الإثم لا يخفى على قلب المؤمن التقي، فيضطرب عنده ولا يرتاح إليه، فقلب المؤمن لا يقبل مثلاً قتل الآمنين وتشريد المستضعفين واسترقاق الأحرار، حتى وإن صدرت فيه فتاوى جائرة من فئات جاهلة شاذة، وقلب المؤمن لا يقبل اعتبار دعاة الإصلاح بغاة ومخربين، حتى وإن صدرت فتاوى ظالمة تستبيح دماءهم وتغري بقتلهم وتصفيتهم، فالحديث قد جاء للحثّ على ترك هذا المتشابه استبراءً لدين المرء وعقيدته.

*** ما دور الجهات الرسمية من مجامع فقهية وغيرها عربياً وإسلامياً في احتضان عملية إعداد المفتي وتكوينه تكويناً علمياً شاملاً، لإفراز فقهاء يتحلون بالوسطية والاعتدال، ويسايرون العصر؟**

إن إعداد العلماء والمفتين والدعاة هو فرض كفاية على الأمة، وهذا يعني أن على الأمة بمجموعها النهوض بهذا الفرض من خلال المؤسسات العلمية ككليات الشريعة والجامعات والمعاهد العلمية، وأن تتعاون في ذلك مع مؤسسات الاجتهاد الجماعي كالمجامع الفقهية من أجل إعداد وتكوين العلماء والمفتين الذين يجمعون بين الانتماء للأصل والارتباط بالعصر، ويتحلون بالوسطية والاعتدال، ويتبنون منهج التيسير في الفتوى والتبشير في الدعوة، وينشرون الوعي الشرعي بين أفراد الأمة وأبنائها، وعلى كبار العلماء في الأمة أن يؤدوا دورهم في الإشراف على هذه المؤسسات ومتابعة نتاجها وقياس مستوى الطلاب فيها وإلمامهم بالشريعة والواقع.

وعلى هذه المحاضن العلمية إعداد الخطط والبرامج العلمية الرصينة التي تتحقق بها الكفاية العلمية لطالب العلم الشرعي من الإلمام بالعلوم الشرعية المختلفة عبر سنوات دراسته، مع ضرورة الإحاطة بالعلوم الأخرى التي يملكون بها أدوات التعامل مع الواقع كالسياسة والاقتصاد والطب والاجتماع والتربية وغيرها، حتى يتحقق التكامل المعرفي في بناء شخصية الطالب العلمية، فيكون قادرا على فهم الواقع ومقتضياته، ومتمكنا من تنزيل أحكام الشرع تنزيلاً موافقاً لمقصود الشارع في تحقيق مصالح العباد ورفع الحرج والإثم عنهم، وإن إيجاد هؤلاء العلماء الراشدين المتبصرين هو أعظم ضمانة لصناعة أمن الأوطان واستقرارها، وبناء نهضتها وازدهارها، وصياغة حاضرها ومستقبلها المشرق الزاهر بإذن الله تعالى.



بيبليوغرافيا ملف الفتاوى

- «منار أصول الفتوى وقواعد الإفتاء بالأقوى»، المؤلف: الفقيه المالكي إبراهيم اللقاني.
- «المجموع شرح المهذب»، المؤلف: النووي.
- «الموافقات»، المؤلف: الشاطبي.
- «مختصر شهادتي على الجهاد في الجزائر»، المؤلف: أبو مصعب السوري.
- «الفقيه والمتفقه»، المؤلف: الخطيب البغدادي.
- «الفتوى أدابها وأحكامها»، المؤلف: أحمد محمود آل محمود.
- «أعلام الموقعين»، المؤلف: ابن القيم.
- «الوجيز في أصول الفقه»، المؤلف: د. عبد الكريم زيدان.
- «أسس السياسة الشرعية»، المؤلف: د. سعد العتيبي.
- «شرح تنقيح الفصول»، المؤلف: شهاب الدين القرافي.
- «تحرير المرأة في عصر الرسالة»، المؤلف: عبد الحليم أبو شقة.
- «تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني (١٤٢٥-١٩٢٢)»، المؤلف: أحمد صدقي، الأردن، طبعة ٢٠٠٢
- «تاريخ الطباعة في الشرق العربي»، المؤلف: خليل صابات، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦
- «بداية الطباعة العربية في إسطنبول وبلاد الشام: تطور المحيط الثقافي (١٧٠٦-١٧٨٧)»، المؤلف: وحيد قدورة، الرياض- تونس: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية / مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، ١٩٩٣



• «الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (١٧٩٨-١٩١٤)»، المؤلف: د. علي محافظة، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٤

• «الصحافة العربية: نشأتها وتطورها»، المؤلف: أديب مروة، بيروت: منشورات عويدات، ١٩٧٠

• «الحركة العربية: المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة (١٩٠٨-١٩٢٤)»، المؤلف: سليمان الموسى، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٧

• «الإعلام العربي الرقمي والتحديات الراهنة»، المؤلف: عصام الموسى، عمان: منشورات نقابة الصحفيين الأردنيين، ٢٠١٤

• «رأس المال الثقافي»، المؤلف: جاد الكريم الجباعي، ورقة خلفية، المركز السوري لبحوث السياسات، ٢٠١٣

• «النهج، إنسانية البشرية، الهوية البشرية»، المؤلف: أدغار موران، ترجمة هناء صبحي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، أبوظبي، ٢٠٠٩

• «إدارة التوحش، أخطر مرحلة ستمر بها الأمة»، المؤلف: أبو بكر ناجي، نشر خاص، بلا تاريخ، ومتاح على الشبكة.

• «الإنسان المهدور»، المؤلف: مصطفى حجازي، دراسة تحليلية نفسية اجتماعية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥

• «الطائفية ومسألة الأقليات»، المؤلف: برهان غليون، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، الطبعة الثالثة، ٢٠١٢

• «الجسد والنظرية الاجتماعية»، المؤلف: كرس شلنج، ترجمة منى البحر ونجيب الحصادي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، ٢٠٠٩



هل يعرف التطرف نبي الإسلام؟

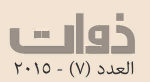


بقلم: السعيد معطوب
باحث جزائري مهتم بقضايا الفكر والنهضة

عندما تلتهم العتمة النور، وعندما تغتال الجهالة المعرفة، هناك فقط، يصبح للتطرف آذان صاغية، وللهمجية أيد داعمة. هذا ما يردده منذ عقود، وتدور حوله جل كتابات وبحوث كثير من مثقفينا. ولأننا أمة لا تقرأ، وحتى إن هي قرأت لا تفهم، ولأننا أيضا أمة كهنوت لا أمة فكر، فقد رُمِيَ كل من ردد مثل هذا القول أو كتب ما يشبهه، بالكفر والزندقة. حاول الكثير من مثقفينا تنبيهنا إلى ما تحمله كتب التراث من اعوجاج فكري قاتل، ولكننا قابلنا محاولاتهم الجادة منها والمتواضعة بتمسك غير مسبوق بكتب التراث وما فيها من أخطاء ومغالطات.

> إن كل دعوة إلى نقد التراث أو على الأقل إعادة قراءته، تتبعها مباشرة دعوة إلى التمسك بهذا التراث والدفاع عن أعلامه ورجاله

إن كل دعوة إلى نقد التراث أو على الأقل إعادة قراءته، تتبعها مباشرة دعوة إلى التمسك بهذا التراث والدفاع عن أعلامه ورجاله. هكذا نشأ بيننا وانتشر فينا التعصب لكل ما هو قديم، تراثي. ندافع عنه بما أوتينا، ونحارب كل من قد تحدثه نفسه بالدعوة لنقده أو تجاوزه، ليتحول التراث من مجرد تأويل بشري يرتبط ارتباطا وثيقا بالمرحلة الزمنية التي أنتج فيها، إلى «نصوص مقدسة»، تعادل قداستها قداسة «النص القرآني»، ويتحول أصحاب هذه النصوص/التأويلات، من مجرد رجال اجتهدوا في قراءة النص/التأويل إلى أنبياء معصومين.



من غير الممكن أن يحاول أي منا نفي علاقة الأصوليات الفكرية، والتنظيمات الإرهابية المسلحة بكتب التراث، وما تحمله من أفكار وفتاوى، فإطلالة خفيفة عن أي كتاب في الفقه أو التفسير أو الأخبار، تنبئنا بصدق الخبر، كما أن استماعنا لخطاب واحد من خطابات هذه التنظيمات، تجعلنا نقف على صحة هذا الادعاء، بهذا نخلص إلى نتيجة لها من الخطورة مالها، وهي أن الإرهابي مسلحا كان أو غير مسلح لا لوم عليه كثيرا، بل اللوم كل اللوم على من يعتقد هذا الأخير أنه سلف صالح، وأن اتباعه والاقتداء به واجب مقدس. صحيح أن الإرهابي ومن يدعمه ماديا وفكريا وشعوريا يلامون كثيرا لرفضهم دعوات نقد وإعادة قراءة التراث، ولكن، هذا اللوم ومهما كان حجمه كبيرا فهو لا يقارن بحجم اللوم الذي يقدم للتراث وأصحابه.

يسأل سائل: لماذا نلوم التراث؟ يلام التراث، لأنه السبب الأول والأخير في بث فكرة التعصب فينا اليوم، يلام التراث أيضا لأنه أصل كل تطرف. التراث يجبرنا على أن نقرأ واقعنا المعاصر بعقل تراثي، فنخطئ في الحكم على واقعنا، ونخطأ في تقديم ما يمكن أن تكون حلولا لتجاوز أزماتنا الفكرية والحضارية. التراث بث فينا فكرة الحق المطلق، وأننا دون منازع أهل هذا الحق، وأن كل من يخالفنا كافر جاحد، جهاده واجب، والموت في سبيل ذلك شهادة. في التراث فقط، نجد شيئا يسمى «دار الإيمان» وشيئا آخر يناقضه تماما يسمى «دار الحرب»، الدار الأولى لنا معشر أمة محمد؛ دماؤنا، أموالنا، نساؤنا، كل شيء فيها مقدس، أما الدار الثانية، فهي للآخر الكافر؛ دمه حلال، ماله غنيمة، امرأته سبية وأرضه فتح مبين. التراث وحده من يجعل تأويل النص يسير في اتجاه أحادي، يرفض بشكل قاطع كل أنواع التأويلات الأخرى، فالنقل مقدم على العقل، وقول السلف مقدم على اجتهاد الخلف. هكذا يؤسس التراث بكل مكوناته الفكرية والعملية إلى ما يسميه الجميع اليوم بالتيار الجهادي في الإسلام.

إن هذا التيار، والذي يدعي انتماءه الكامل للإسلام، لم يجد وسيلة تصلح للرد على استفزازات الآخر، كافرا كان أو مسلما مواليا له، غير ما يسميه بهتانا وزورا «الجهاد في سبيل الله». الجهاد كلمة لها وزنها الخاص في كتب التراث، فهو السبيل الوحيد للشهادة، والشهادة هي خير مهر يمكن أن يقدم لحوريات الفردوس الأعلى. بهذه الطريقة واعتمادا على ما يزخر به تراثنا الفكري والثقافي من تقديس للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق، يجد الأصوليون، جهاديين كانوا أم لا، كمًّا هائلا من النصوص والفتاوى، متخذين منها قاعدة متينة تساعدهم كثيرا وتسهل عليهم مهمة تجنيد من يشاؤون من الرجال.

> الرد على كل أنواع الاستفزازات التي تتعرض لها الأمة الإسلامية، في كل مكان وحين، لا يجب أبدا أن يكون في شكل عمل مسلح

ففي كل مرة، تتعرض فيها الأمة الإسلامية، لشيء من الاستفزاز، من بعض متطرفي الديانات الأخرى، كحرق أو تمزيق المصحف الشريف، أو نشر رسوم أو مقالات تسخر من نبي الإسلام، أو قتل بعض رجال ونساء الأقليات المسلمة والتنكيل بهم، في أوربا وآسيا الشرقية، أو ما شبه ذلك، إلا وانتشر في كل وسائل الإعلام بالعالم أن جماعة إرهابية مسلمة، قامت بتفجير برج تجاري في أمريكا، أو محطة مسافرين في بريطانيا، أو سفارة الدانمارك في اليمن، أو قتل هيئة تحرير صحيفة في فرنسا،... إلخ، لتنتشر بعد ذلك بسرعة البرق أخبار تفيد أن هذه العملية أو تلك، جاءت للرد على ما يلقاه المسلمون من أذى واحتقار في كل بقاع العالم، وأنها جاءت للانتقام من كل من يجرؤ على المساس برموز المسلمين المقدسة.

من دون شك أنه وفي كل مرة يحدث مثل هذا الأمر، إلا ووجدت بيننا مئات الملايين، يهللون ويصفقون ترحيبا بمثل هكذا عمليات. فالمسلم اليوم، وفي ظل واقع جديد، يختلف تماما عن ذلك الواقع الذي تصوره كتب التراث، كواقع معاش أو موعود، يجد نفسه ودون أدنى وعي منه داعماً ولو شعورياً لكل أنواع الأفكار والأعمال المتطرفة، فهي حسب ما يعتقد السبيل الوحيد لمجابهة تطرف الآخر غير المسلم، وأنها الوسيلة الأنسب لجعل هذا الأخير يفهم أن المسلم، ورغم كل شيء،

لا يزال على ثوابته، وأنه مستعد كل الاستعداد من أجل الموت في سبيلها. قلة هم أولئك الذين يرون أن مثل هكذا خيار، يضر ولا ينفع، يفسد ولا يصلح، وأن الجهاد كما جاء في القرآن، وكما مارسه رسول الله (ص)، غير الجهاد الذي نودي به في كتب التراث، وغير الجهاد الذي تمارسه اليوم الكثير من التنظيمات المسلحة.

نؤمن إيمانا لا شك فيه، أن الجهاد واجب شرعي، فقد أمر الله عز وجل به نبيه مرارا وتكرارا. ولكن، نؤمن مع ذلك أيضا، أن الجهاد النبوي، لم يكن أبدا سيفا مسلطا على رقاب كل من جحد وكفر، أو كل من استهزأ وسخر، إنما كان للرد على الاعتداء المادي للآخر؛ أي عندما رفعت قريش السلاح في وجه النبي، ومن معه وخططت لتصفيتهم. تخبرنا كتب السيرة، أن النبي، ولما كان في مكة، تعرض وصحابته إلى كل أنواع الاستفزاز والسخرية، ولكن، وبالرغم من كل ذلك، لم يقم النبي بالرد على كل الاعتداءات التي كانت تمس شخصه كإنسان، ومكانته كنبي مرسل، كما لم يأمر أياً من صحابته بالرد حتى على الاعتداء الجسدي الذي كانوا يتعرضون له. عذب بلال حتى كاد يلقى حتفه، وعذب ياسر بن عمار حتى نطق بكلمة الكفر، وضرب أبو بكر حتى أصبح لا يعرف له وجه.

هل يجب أن نذكر سلفنا، ومعاصرينا، بما حدث للنبي بالطائف؟ قدم الطائف، وهو يرجو من الله أن تلقى دعوته استجابة. جلس إلى كبراء ثقيف، دعاهم بكل حب إلى التوحيد، فما لقي منهم إلا الاستهزاء والسخرية، والسب والرجم بالحجارة. والألم قد دب في كل جزء من جسده، والكرب يعتصر قلبه، يرفع يديه إلى السماء، فيقول: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين! أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو وكلته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك». في تلك اللحظة، يصل الدعم الإلهي، ينزل ملك الجبال، يستأذنه في أن يُطبِقَ على ثقيف الجبلين، فيقول، عليه الصلاة والسلام: «بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا».

هذا هو محمد، وهذا هو المجاهد في سبيل الحق. يُستهزَأُ به، يُسَبُّ ويُشتَم، يُضرَبُ ويُرجَم، تتدخل أجل وأعظم قوة لنصرته، ومع ذلك يدعو الله لهم بأن يهديهم سواء السبيل، أو أن يخرج من أصلابهم من يؤمن بالله ورسوله.

إذا كان هذا حال النبي ذاته مع من كان يستفزه ويسخر منه، بل مع من كان يؤذيه ويشتمه، أيكون حالنا اليوم، مع الآخر المتطرف، المستفز، الساخر، غير هذا الحال؟

إن الإجابة على هذا السؤال، ستجعلنا من دون شك، نتوجه إلى كل أنواع العمليات التي توصف زورا على أنها جهادية بالتجريم. فالرد على كل أنواع الاستفزازات التي تتعرض لها الأمة الإسلامية، في كل مكان وحين، من طرف بعض الجماعات المتطرفة في بعض الدول الأوربية أو الآسيوية أو الأمريكية، لا يجب أبدا أن يكون في شكل عمل مسلح، فمثل هكذا ردود، ومهما وجدنا لها من تبرير وتفسير، لا تتوافق وما جاء به رسول الله، كما أنها تزيد من تشويه صورة الإسلام، ليزداد بذلك التطرف عند الآخر المستهدف انتشارا، وتزداد الاستفزازات حدة.

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com مؤسسة دراسات وأبحاث



مؤسسة مؤمنون بلا حدود
تحل ضيفا على معرض تونس الدولي،
وتقدم مجموعة من الأنشطة الثقافية
جناح 326



محنة المثقف في المغرب الحديث



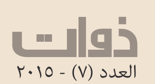
بقلم: صدوق نورالدين
كاتب وناقد مغربي

١. من المفارقات البليغة في المغرب الحديث، وأفهم الحديث كراهن، أن التفكير في المثقف يرتبط بظاهرة الحاجة. تبرز هذه كلما تعلق الأمر بإشكال سياسي أو اجتماعي، وقل إن كان ثقافيا خالصا. وبانتفائه، ينتهي التفكير في شخصية المثقف. بذلك لا يعد الأخير مساهما فعليا في بناء النماء والتقدم، وإنما نلفيه متروكا للهامش، تماما كالشأن الثقافي. إنه جزء من بنية تعد في (التصور) السياسي غير منتجة؛ إذ المثقف في ضوء هذه الصيغة أشبه بالبضاعة الكاسدة التي لا موقع لها في العجلة الاقتصادية. ومن ثم، فموقعه في وضعية الثابت، إلى أن تبرز ظاهرة الحاجة.

من المفارقات أن المثقف أصبح أشبه بالبضاعة الكاسدة التي لا موقع لها في العجلة الاقتصادية

على أن ما لا يستساغ في المغرب الحديث، عدم قبول التلقي السياسي لما يباينه ويختلف في التوجه؛ فإذا حدث أن أبدى المثقف رأيا نقديا بخصوص موقف أو مبادرة، يجابه كرافض وليس كمشارك في ما يهم الجميع ويطبق،علما بأن شخصية المثقف، هي شخصية الكائن الذي يمكن أن يصيب ويخطئ.

من خلال السابق، يتضح بأن حرية المثقف شبه منزوعة؛ إذ متى دعت ظاهرة الحاجة، فهو مدعو لإبداء الرأي.. وبغيابها لا يحق التعبير النقدي المغاير والمخالف.



بذلك، فإن ظاهرة الحاجة هي في الجوهر ظاهرة الموافقة وليس المشاركة بالرأي والحوار والنقاش. من ثم أثير موضوع المثقف والصمت.

٢. إن المثقف يفعل، يتفاعل حضورا واسما علما رمزيا، انطلاقا من حركية الكتابة والإبداع. هذه بمثابة اختيار وتجسيد لكفاءة وتميز. واللافت أن هذه الحركية تعلن عن ذاتها في صيغة من الصيغ قصد التداول والترويج. وهنا بالذات يكسر المثقف ما يؤاخذ عليه كصمت، إلا أن التلقي السلبي والجهل المركب يتغاضى عن الصيغة إن لم أقل لا يواكبها كمطلوب وتكسير لوهم الصمت، ليبقى المثقف في «عرف» أسماء نكرة، كائناً غير قادر على مواجهة ومجابهة أسئلة الراهن مهما كانت درجة قوتها،علما بأن إبداء الرأي والإعراب عن موقف، يقتضي من المثقف بالذات اتخاذ مسافة زمنية للتأمل السياسي في طبيعة الوقائع والمستجدات. فمن يتخذ الموقف في آنه، لحظته، السياسي مادام المطلوب كذلك. على أن يشرك في العملية المستشارين المحيطين به، وإلا فهو مدعو لتعديل ومراجعة ما أقدم على اتخاذه، وهي مبادرة السياسي الغربي بامتياز، وليس العربي الذي يتمسك بالموقف الخاطئ في الزمن الخطإ.

٣. على أن ما يجدر لفت النظر إليه، كون شخصية المثقف في المغرب الحديث ارتبطت بالتوجه اليساري في التفكير، سواء انتمى المثقف لحزب في تعاقد بمثابة التزام، أم كان متعاطفا فقط. والأصل أن التوجه اليساري يتأسس على عقلانية التفكير وحداثته على مستوى الإبدال والتغيير، بعيدا عن السقوط في الإيديولوجية الرخيصة، والذاتوية المريضة التي تحرف التوجه اليساري عن مساره. وثم يحارب سياسيو اليسار مثقفيه، علما كما سلف بأن رافعة الأحزاب اليسارية تتمثل في الثقافة والتربية. وأرى أن من مآزق الإخفاق اليساري سياسيا في المغرب بالضبط، إقصاء المثقف وعزله، إلى القضاء على الآليات الثقافية والإعلامية بما هي مجلات وجرائد تفعل بقوة رمزيتها. وبذلك، أصبح الرأي والموقف المتعلق بالشأن المحلي والخصوصية المغربية، يصدر خارج الفضاء المغربي، وهي محنة مضاعفة تضاف إلى ظاهرة الحاجة وتهمة الصمت.

٤. إن الحاجة إلى شخصية المثقف تظل قائمة، مادامت الثقافة حصيلة معارف وأفكار تدعو إلى إبداء الرأي والتفكير والتأويل على السواء، ومن ثم فإن التكفير في التطوير الفعلي لما هو ثقافي يتأسس على التغيير المرتبط بحقل التعليم أساسا، إذ ومهما تأتى التفكير في ترتيب إصلاح فاعل ومنتج لواقع تربوي اتضح ويتضح، كونه يعاني من انكسارات ومزالق في حاجة إلى التقويم الفعلي والإصلاح العميق وليس الآني الظرفي.. فالنهضة الثقافية الحقة تبدأ من التربوي وليس من خارجه كما يعتقد ويظن، مادام التكامل حاصلا بين الحقلين: التربوي والثقافي.

إن المثقف، وهو يفكر ويبدع، لا يمكنه التواجد خارج اللحظة ببعديها السياسي والاجتماعي

٥. إن التفكير في المثقف كأثر، رمز وموقف، لا يمكن تمثله في غياب قوة استحضار التعبير الصادر عنه على مستوى المناهج الدراسية والتربوية، بغاية تجسير علاقات التلقي على تباين واختلاف المستويات، إذ لا يعقل أن تظل الثقافة المغربية كنص، خارج التداول والمعرفة بالاستناد لمبررات واهية كالملاءمة والغموض والبعد النقدي، إذ المطلوب من تدريسية الأدب والفكر عموما الإيصال والتقريب. إيصال المعاني بالقراءة، الفهم والتأويل. وأما التقريب، فيتحقق باعتماد المقارنة، وإشراك الآخر نوعية تفكيره ومواقفه.

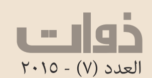
على أن ما يجدر وعيه، أن المثقف بحضوره الرمزي، يعد مصلحا؛ إذ إن ما يراه ويعاينه من مفاسد واختلالات ينزع إلى درئها، وهنا يبرز وازع الضمير وسؤال الأخلاق. والأصل أن سيادة التقليد والمحافظة تكريس للثابت، فيما سؤال الخلخلة والانتقاد تحقيق للتغيير. هذا الذي يظل مرفوضا كجديد وتجديد، وهو ما أفسح لهيمنة التقليد وعناصره. وإلا فما الداعي لإقصاء وتغييب نصوص فكرية لعبد الله العروي، محمد عابد الجابري وعلي أومليل وعبد السلام بنعبد العالي. وهنا لا بد من الإشارة إلى كون من يسهم في/وعلى اختيار ما يدرس يظل في حاجة إلى تكوين ثقافي، وهو وجه من

وجوه محنة المثقف في المغرب الحديث. فالعديد من المؤطرين القدامى والحديثي التخرج، في أمس الحاجة للتأطير التربوي والفكري.

٦. إن المثقف، وهو يفكر ويبدع، لا يمكنه التواجد خارج اللحظة ببعديها السياسي والاجتماعي. ذلك لأنه لا ينتج من فراغ، مثلما لا يعبر عن واقع غير واقعه، علما بأن حصيلة من الوقائع والقضايا، تمثل مشتركا بين العديد من البلدان العربية ليس اليوم وحسب، وإنما على امتداد التاريخ. ومن ثم، فكل كتابة يجدر قراءتها كتفاعل واللحظتين السابقتين، وحتى إن لم يتحقق، فإن التأويل وحده يزج بالتفكير والإبداع في خضم السياسي والاجتماعي. وإلا فكيف نفهم الانتقادات الراهنة التي توجه للكتابة كما للإبداع، من منطلق كونه غفل عن إيلاء ظاهرة الربيع العربي المستحق من التعامل. لكن تفكير العامة والمهتمين ليس هو بالذات تفكير المثقف كمفكر ومبدع، إذ إن إلزامية اللحظة تفرض التريث وليس الاستباق؛ فالاستباق شأن سياسي له إيجابياته ومضاعفاته. ولكن بالنسبة إلى المثقف، فإن الرهان يقع على المسافة المتخذة بين الحدث كواقع والنص ككتابة. وإلا فمن كان سيتكهن بما انتهت إليه المتغيرات في أكثر من بلد عربي من تلك التي طالها الربيع العربي، وكأني بها لم تبرح المربع الذي قاومته ذات زمن. ولذلك، فإن من محن المثقف العربي ككل، أنه يحاسب على ما فكر فيه وما أبدعه، لكن السياسي لا أحد ينازعه القول في سقطاته التي ينتهي إليها.

لذلك، فالمثقف وهو يتفاعل واللحظتين، إنما يتمتع بحرية إبداء الرأي والقول متى ما توافرت شروطها، وليس من منطلق إجبار طرف ما على حشره في دائرة من دوائر التكريس. إن المثقف يمتلك وعيه السياسي والاجتماعي، ولا يمكنه التنازل عليه.

٧. إن الضرورة اليوم، تفرض علينا العمل على النهوض بثقافة المشاركة. وهي ثقافة تقتضي استدعاء المثقف لميدان الفعل وليس إقصاؤه إلى لحظة الحاجة كما سبق القول؛ إذ وباعتماد مشاركته، يتحقق التنوع في الرأي كما الحق في تأكيد قوة الحضور التي تظل غائبة بمبررات كالصمت والهامش،علما بأن المثقف يتابع مجريات الحياة الاجتماعية والثقافية، في حين أن «نخبة» السياسة لا تقرأ هذا المثقف إلا في النادر، وفي سياق تلبية حاجاتها الخاصة والشخصية.



مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

www.mominoun.com مؤسسة دراسات وأبحاث



للراغبين في الحصول على منشورات المؤسسة

في معرض تونس الدولي للكتاب بتونس العاصمة

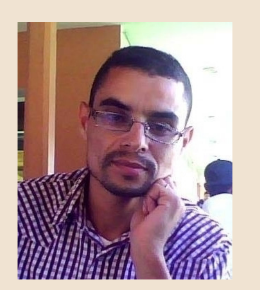
من المركز العربي الثقافي :جناح 205

الكتب المترجمة من دار جداول :جناح 904

في الفترة ما بين: 27 مارس 2015 و5 أبريل 2015



العولمة وأثرها على اللغة العربية



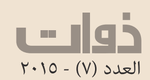
بقلم: عزيز العرباوي
كاتب وناقد من المغرب

إن اللغات غالباً ما تختلف في نقل الواقع والحياة بكل تجلياتها، ويرجع هذا الأمر إلى وعي الإنسان المتكلم باللغة وعياً مختلفاً، وقد يكون متعدداً. إن اللغات ليست مرآة عاكسة للواقع، لأنها نوع من الإدراك للواقع، بل هي رؤية هذا الواقع، وهنا يبدو قول مارتن هايدجر الذي يرى أن «مرجع الحقيقة هنا هو ذاتية الفاعل الإنساني». فرؤية الواقع في حد ذاته مرتبطة بخبرة الإنسان المختلفة، فقد تتشابه اللغات في التعبير عن جوانب معينة من الواقع، لأن الناس يرجعون إلى أصل واحد ربما وُرِثت منه رؤى للعالم متشابهة أو متقاربة. فالاتصال بين الأمم يساهم في انتقال الكلام الخاص بمجموعة بشرية معينة إلى مجموعة مختلفة عنها. وارتحال مقومات لغوية معناه انتقال رؤى للعالم ناتجة عن تجربة معينة من مجموعة لها لغة خاصة إلى مجموعة أخرى لها لغة خاصة بها أيضاً.

> اللغة أساس الفكر، لأنه من خلالها نرى العالم، كما أن وعي العالم والحياة عموماً ينتقل إلى المتكلم المفكر

فاللغة أساس الفكر، لأنه من خلالها نرى العالم، كما أن وعي العالم والحياة عموماً ينتقل إلى المتكلم المفكر. ومن هنا يمكن القول بأن اكتساب الفكر والوعي به لا يمر إلا عبر الاطلاع على لغات الآخرين، حيث يكون لها رصيد لغوي مهم في رؤيتها للعالم، وبالتالي الوعي بالمفاهيم والأفكار في ألفاظ معينة قد تولدت

١- محي الدين حمدي، «تأويل الطبيعة والوجود»، مجلة علامات، العدد ٤٠، وزارة الثقافة، الرباط، ٢٠١٣، ص ٥٩



«من تنظيم اجتماعي ثقافي خاص متفاعل مع الأرض والتاريخ، مثل الفتوة والنخوة والعرض والإمارة والخلافة والإمامة...»[٢].

إن اللغة هي أداة تواصل وتفاعل؛ فتكون كذلك بالنسبة إلى أصحاب اللغة الموحدة؛ لكنها قد تكون غير ذلك عند من يختلفون عنهم في اللسان، ولذلك تبقى أهمية معرفة اللغة/ اللغات الأخرى محاولة لتخطي الجدار اللغوي المانع للتواصل الإنساني؛ لأن التنقل بين مختلف اللغات العالمية يسهم مساهمة حية في تحرير الذهن الإنساني المنغلق على ذلته. وبالتالي، فالانفتاح الحضاري والثقافي على الآخرين يؤمن التفاعل البشري وينتج السلم والأمن الإنساني، ويحقق ذلك التواصل المنقطع باللغة المختلفة والقيم والتقاليد المختلفة...

العولمة اللغوية والثقافية:

يعتقد هيجل أن «كل ما هو عقلي فهو واقعي، وكل ما هو واقعي هو عقلي»، فكل لغة، حسب فون هيمبوليت، تمثل نوعاً معيناً من تفكيك العالم وإعادة بنائه وتنظيمه وفق ألفاظها وبنياتها التركيبية، حيث «إن كل لغة تحتوي على ميتافيزيقا خفية، بشكل لا يجعلها تسهم في التعبير عن الفكر، بقدر ما تشرطه وتشكله».

ومن هنا، ووفق المنظور الفكري والسياسي الحديث، فإن اللغة صارت متأثرة بباقي اللغات في العالم، تتفاعل معها، وتتأثر بها تأثراً سلبياً أو إيجابياً. فالعولمة بمفهومها الشامل تتجاوز المجالات التي أثرت فيها، كالتجارة والاقتصاد والسياسة، إلى قضايا ومجالات أخرى لها علاقة بالثقافة والفكر واللغة، فأصبحت اللغة والثقافة في وقت وجيز، وبفعل الانتشار السريع، إلى سلع تتداول لأهداف تجارية واقتصادية، مثل تعليم اللغات الأجنبية المنتشرة بشكل قوي في العالم. فالعولمة، بصيغة أخرى، لها صلة بالهيمنة الثقافية والسياسية للولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها في الغرب الأوروبي، فتمتد إلى الممارسات الثقافية واللغوية والتعبيرات الثقافية المختلفة، فتكتسح الهوية الثقافية للمجتمعات اللغوية عبر الإنجليزية في سائر دول العالم، وتجلب الخصائص الثقافية والفكرية للعولمة اهتماماً واضح المعالم عبر عدد من التخصصات العلمية٣.

يؤكد أحمد عبد السلام أن للعولمة عموماً، اتصال كبير بالهيمنة العالمية لعدد قليل من الثقافات واللغات، كالإنجليزية والفرنسية، فتؤدي هذه الهيمنة إلى تجاهل التنوع الثقافي واللغوي، وعدم احترام الخصائص الثقافية المختلفة لباقي الشعوب والمجتمعات. وبالتالي تحقيق غاية تغيير أنماط التقاليد والحياة، والتحكم فيها لتصبح نسخة مطابقة للنمط الغربي، حيث صارت المعتقدات الدينية والثقافية مهددة في عالم العولمة، فالسوق أخذ صفة الألوهية، فاعتبر الإنتاج والاستهلاك مفتاحين لإنقاذ الناس من المخاطر التي تلحق بهم في وجوده.

> إن لغتنا تستطيع بحكم رصيدها اللغوي الكبير وبمخزونها الاشتقاقي الذي مازال لم يستعمل كله إلى اليوم، قادرة على التفوق على باقي اللغات

وعن العولمة اللغوية، يتحدث أحمد عبد السلام أيضاً عمّا يسمى بالتعبير عن المقومات الثقافية العالمية، أو الربط بين المقومات الدينية التراثية والمقومات العالمية الحديثة، بل عن تجديد مفاهيم المصطلحات المتداولة عالمياً، ولكنها تتجاوز تلك الجوانب للنظر في مصير اللغة من خلال قومية معينة، باعتبارها وسيلة للتواصل والاندماج الاجتماعي. فاستخدام لغة محددة وواحدة يحيل مباشرة على وحدة الإحساس والموقف والتعبير والشعور، كما يساهم في انعكاس أنماطها على نمط تفكير أهلها، وعلى تاريخ أصحابها وثقافتها، وإبداعها التراثي والحديث٤...

فتنوع وتعدد اللغات في العالم مسألة إيجابية وأمر ضروري للإنسان عامة، بل إنه ضمان للحفاظ



٢- المرجع نفسه، ص ٥٩

٣- أحمد عبد السلام، «العولمة والثقافة اللغوية وتبعاتها للغة العربية»، عن موقع: مجمع اللغة العربية الأردني:
http://goo.gl/tGoenB

٤- المرجع السابق.

على السعادة البشرية، وعلى التواصل الإنساني والتفاعل الحضاري... وما العولمة اللغوية والثقافية وتطورها وتزايدها باستخدام كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، وفي حد ذاته تكريس للأحادية اللغوية والثقافية، فيكون للثقافة الغربية الموقع الأفضل والمتقدم في العالم، في الفعل والقول والسلوك، وللغة الإنجليزية والفرنسية بشكل أقل الفضل الكبير للترقي في عالم السياسة والاقتصاد والمال والتجارة وحتى الثقافة... هذا ما تهدف إليه العولمة اللغوية المكرسة للأحادية العالمية...

ولعل ما يروج اليوم في مختلف البلدان العربية، وعلى ألسنة الضعفاء من الناس، أن الإنجليزية (الفرنسية في بلدان المغرب العربي) أي لغة العلم والاقتصاد والسياسة، وبدونها لا يمكن لأحد في العالم أن يجد لنفسه موطئ قدم في عالم اليوم... متناسين أن لهم لغة قوية وغنية برصيدها اللغوي والعلمي والمعرفي والأدبي والتراثي... يستطيعون من خلالها وبواسطتها التقدم على كل العالم، بل قيادته، كما حصل في الماضي، يوم كانت اللغة العربية بعلومها وآدابها رائدة في كل المجالات.

إننا في حاجة إلى إعادة النظر في أنماط تفكيرنا الثقافي والعلمي واللغوي، فنواجه هذا المد العولمي المتوحش

وبمقارنة بسيطة بين اللغة العربية وباقي اللغات في العالم، فإننا نجد أن لغتنا تستطيع بحكم رصيدها اللغوي الكبير وبمخزونها الاشتقاقي الذي مازال لم يستعمل كله إلى اليوم، قادرة على التفوق على باقي اللغات، بما تتميز به من صفات جمالية وإيقاعية، ومطابقة المستوى الصوتي فيها للمستوى الكتابي؛ أي تطابق الرموز الصوتية للرموز المكتوبة، وسهولة النطق بها، والشعور بموسيقيتها أثناء عملية النطق.

مظاهر العولمة اللغوية:

تحدد الدكتورة زينب بيره جكلي، أستاذة بقسم اللغة العربية في جامعة الشارقة، في مقالها «أثر العولمة على اللغة العربية» المنشور بموقع «أدباء الشام»، بعض مظاهر العولمة اللغوية، وتأثيرها على اللغة العربية وتطورها في العالم العربي وعند الناطقين بها، فتذكرها في النقاط التالية[٥]:

الثنائية اللغوية في التعليم العربي وسيطرة اللغة الأجنبية في المدارس الخاصة والجامعات.

استخدام ما أطلق عليه اسم العربيزية في وسائل الإعلام الحديث (الشبكة العالمية الإنترنيت).

نشر الأبحاث العلمية بالإنجليزية والاعتراف (والفرنسية) بهما في الجامعات العربية.

ازدواجية اللغة في المجتمع لا في التعليم فحسب، بل في كل مجالات الحياة الاجتماعية العربية.

التعامل في السوق بالإنجليزية (والفرنسية)...

تهديد الأمة بالانقسام بناء على اختلاف اللهجات واللغات في البلد العربي الواحد...

وفي شرحها لمستوى الثنائية اللغوية في العالم العربي، استحضرت الدكتورة جكلي نتائج مقابلة جريدة الشباب في لقاء مع بعض الطلاب الشباب في الإمارات العربية المتحدة حول مسألة محاولتهم استخدام اللغة العربية الفصحى في التواصل والدراسة، فكانت النتائج[٦] على الشكل التالي:

١. كثير من الطلاب باتوا لا يحسنون التحدث بالفصحى، لأنهم يتكلمون الإنجليزية منذ المرحلة الابتدائية، وبعض هذه المدارس تغرم الطالب الذي يتكلم بالعربية أموالا ليدع التلفظ بها.

٢. بعض الطلاب صار يعد تعلم العربية مضيعة للوقت،

٣. وبعضهم بات يكرهها وينفر منها، والمرء

٥- زينب بيره جكلي، «أثر العولمة على اللغة العربية»، موقع أدباء الشام: http://goo.gl/iuKgOm

٦- المرجع السابق.



عدو ما يجهل،

٤. وهناك من يفخر لتحدثه أو لتحدث أولاده بالإنجليزية لغة العلم المعاصر بزعمه، وصار يعد الفصحى «موضة قديمة» على حد قوله.

٥. وأثبتت التجارب أن من يدرس بلغته يتفوق على من يدرس بغير لغته الأم كالإنجليزية للعرب، ولذلك فالتدريس بالأجنبية يؤثر على الكمية المعطاة من العلم، كما صرح بذلك بعض أعضاء الهيئة التدريسية.

٦. النجاح في المستقبل لا علاقة له بالنجاح في اللغة، فألمانيا وفرنسا والصين وفنلندا واليابان وسوريا وفيتنام تدرس بلغاتها لا بالإنجليزية، وكذلك في بعض مناطق كندا يدرس فيها بالفرنسية لغة أهلها الأم.

٧. ضعف الانتماء العربي عند من يدرس بالإنجليزية بل فقدانه أحياناً، وتفضيلهم الخروج من الوطن، ولهذا صرنا كالفراش الذي يغرق بالنور فيحترق به، إذ خسرنا أبناءنا وانتماءنا وهويتنا حتى صار في أمريكا وحدها سبعة ملايين عالم غير أمريكي الأصل.

إن التأكيد على ضرورة الحفاظ على اللغة العربية من الاختراق اللغوي والثقافي الأجنبي ليس دعوة تنحو تجاه العصبية والقومية فقط، بل نابعة من شعور داخلي بالخوف على الأمة من التشتت والضياع والتيه في عالم يتكتل ويجتمع على مواجهتنا ثقافياً وفكرياً واقتصادياً وسياسياً... ولذلك، فإن العولمة كمنهج سياسي ثقافي اقتصادي تجاري، استطاع أن يترك أثره في العالم بأجمعه، بل في وطننا العربي المهدد بالتفرقة، والاختراق بكل تجلياته وأبجدياته المعروفة وغير المعروفة، والهيمنة الثقافية واللغوية التي بدأت تظهر ملامحها بقوة في العديد من البلدان العربية من المحيط إلى الخليج. إننا في حاجة إلى إعادة النظر في أنماط تفكيرنا الثقافي والعلمي واللغوي، فنواجه هذا المد العولمي المتوحش تحت مظلة السياسة والاقتصاد والتجارة، بينما هو لا يفتقر إلى الوسائل القوية والواسعة الانتشار والقادرة على التأثير في اللغة والثقافة العربيتين، فتجعلهما في مؤخرة الطابور العالمي، ولعلنا ندرك هذا الخطر علينا، لأن الغرب يدرك أيضاً مدى قوة اللغة العربية وإمكانياتها الكبرى على التأثير في ثقافات العالم وقيادته سياسياً وفكرياُ وعلمياً...

السياسة الثقافية واللغوية العربية في حاجة إلى تأسيس ميثاق قومي عربي يمكن من خلاله الحفاظ على لغتنا القومية ووضعها في مستوى أعظم بين لغات العالم وثقافاته... فإمكانياتنا المادية والبشرية والثقافية والمعنوية كثيرة تحتاج فقط بعض الأفكار المتقدمة سياسياً وفكرياً لتحقيق هذه الغاية العظمى...



بقلم: رياض حمَّادي
كاتب ومترجم يمني

طلال قاسم, رواية الواحد، الطبعة الأولى ٢٠١٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر

توظيف الدين في رواية الواحد

إبراهيم الرواية وإبراهيم اللاهوت

تشير الذاكرة الإبراهيمية في سياقها اللاهوتي إلى مرحلة توحيد الآلهة في إله واحد؛ أي الانتقال من التعددية إلى التوحيد، وتشير في سياقها الروائي إلى توحيد العالم والإنسان في مصير واحد مشترك. لذلك، تخشى القوى الكبرى -المنظمة السرية في الرواية- من هذه الذاكرة وتحاول محوها أو ترقيعها بذاكرة جاك قبل يقظته؛ فيتم إدخاله إلى المركز السري من أجل غسل دماغه. وفي هذه المحاولة دلالة تكشف طبيعة الصراع بين قوى الخير والشر وحرص الأخيرة على الحيلولة دون توحيد جهود قوى الخير في الشرق والغرب.



طلال قاسم

إن عدم وجود دلائل تاريخية على وجود النبي إبراهيم، كان مدعاةً لأن تتنافس التوراة والقرآن على الاستئثار به، وهو ما أدى إلى خلق صلة بين هاتين الديانتين

اختيار اسم إبراهيم، كشخصية ثانية لجاك، له دلالة تتجاوز الاسم إلى عمق الشخصية الإبراهيمية اللاهوتية؛ حيث يمكن أن نرى في اختلاق جاك لإبراهيم دلالة تشير إلى اختلاق أبي الأنبياء للدين أثناء بحثه عن الإله الواحد، أو أن النبي إبراهيم شخصية ميتا - تاريخية. والمشترك في إبراهيم الرواية وإبراهيم اللاهوت هو الدافع الروحي للهروب من عالم المادة إلى جوهر العالم؛ فالنبي إبراهيم فر من عبادة الأصنام بحثاً عن إله واحد مفارق للمادة، وإبراهيم الرواية فر من العبودية الجديدة، ممثلة في النزعة المادية الاستهلاكية بحثاً عن عالم واحد يعيش فيه حراً.

وفي احتلال الذاكرة الإبراهيمية لذاكرة جاك دلالة العودة إلى الأب المشترك عند أصحاب الديانات السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام. فالنبي إبراهيم عند العبريين يعد «أهم الآباء الأوائل للشعب العبري، وهو أب لسلسلة من الأبناء كانوا جميعاً ذوي علاقة حميمة بالإله... وهو عند المسيحيين لا يقل رتبة عنه عند اليهود، لأن إنجيل (متى) يقرر أن إبراهيم هو الجد الأعلى ليسوع المسيح... وهو عند المسلمين: خليل الله، أب الأنبياء»[١].

والاسم إبراهيم لا يرتبط بالديانات السماوية الثلاث فقط، فهناك براهما في الديانات الهندية، وهو ما يشير إلى وجود قاسم مشترك بين هذه الديانات يتمثل في البحث عن روح الواحد؛ فقد اتسمت الديانة الهندية بالبحث عن الحقيقة المطلقة للكون وراء كل الثنائيات المتناقضة، وذلك من أجل العثور على الواحد الكامن وراء المتعدد. «ففي الأوبانيشاد، النصوص الهندوسية، أعطيت هذه الحقيقة اسم براهما. وعدم تحقق البراهما، باعتباره التجلي الأوحد مثله في ذلك مثل الذات نفسها، فإن ذلك هو الجهل والمعاناة.. لقد كان هدف الديانة الهندية هو تحقيق هوية الإنسان مع براهما والاتحاد الجوهري الكامن وراء التناقض الظاهري للحقيقة والمظهر (النيرفانا والحياة العادية)، من أجل خلاص وتحرر الإنسان من دورة الميلاد والموت واجتياز وعيه خارج مدار تلك التجليات والمظاهر. أما عند الصينيين، فإن التناغم مع التاو كان هو الهدف الرئيس»[٢]. وكذلك تسعى الأتمان إلى إدراك البراهمان؛ أي إلى الاتحاد بالمطلق، عبر مصرف كامرا، فترحل في هذه الحياة في حج تولد فيه وتموت مراراً حتى تنجح في أن تطرح عن نفسها الثوب الذي يأسرها. وفي تراث التعاليم الزنِّية تعتبر مفاهيم الوجود والعدم من صنع عقولنا فحسب، تلك «صورة توضح لنا أن الواحد يحتوي كل شيء، وأن كل شيء هو فقط واحد. والعلم الحديث قد أدرك

١- سيد محمود القمني: النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، ص ١٢ – ١٣

٢- آن بانكروفت: الزن- الاتجاه المباشر إلى الحقيقة. ترجمة: عبدالوهاب المقالح، مؤسسة الشرق الثقافية، ط أولى ٢٠٠٥، ص ١٥، ١٦، ٢٢

حقيقة أن المادة والطاقة ليستا فقط شيئاً واحداً؛ بل إن المادة والفضاء والعقل شيء واحد لأن العقل هو فيها»[٣].

والغربة والتيه صفة مشتركة بين إبراهيم الرواية وإبراهيم اللاهوت، فقد كان أبو الأنبياء غريبا على بلاد العرب. يقول السهيلي: «إن إبراهيم كان سريانياً من حاران، وأنه كان يتكلم اللغة السريانية، ثم تحول إلى اللغة العبرانية عند عبوره نهر الأردن ونزوله أرض كنعان... وقد وصفت التوراة إبراهيم بأنه رجل آرامي: (آرامياً تائهاً كان أبي) – تثنية ٢٦: ٥. وأقر التراث الإسلامي أنه ليس من أبناء الجنس العربي، وأن لسانه لم يكن عربياً، وقال ابن هشام في السيرة: إن لسانه كان سريانياً (لسان شمال بلاد الشام)»[٤]. وإذا كان إبراهيم في الرواية شخصية له ثلاثة أبعاد هي: جاك، إبراهيم، وآدم، فإن الدراسات الحديثة تشير إلى احتمال أن إبراهيم ليس شخصاً واحداً، أو أنه رمز إلى مسمى قبيلة.

حلول ذاكرة إبراهيم في جاك يعلله الدكتور كارتر إلى احتمال تعرضه لـ «صدمة قوية قد أصابته في حياته»[٥]، مما أدى إلى رفضه لشخصية جاك ولجوئه إلى شخصية متخيلة. مثل هذا الهروب على صعيد الرواية يمكن عده إشارة لهروب تاريخي لاهوتي قام به النبي إبراهيم: هروب من واقع مأساوي ألم به أو بقومه جعله يلجأ إلى أرض أخرى واختلاق الإله الواحد، وهو ما كان يستدعي تدخل الطب النفسي، لولا عدم توفره حينها، فتم استدعاء الإله الواحد المخلص، لا ليصالحه مع واقعه، وإنما ليكرس الواقع المختلق! وبذلك يمكن النظر إلى العلاج النفسي لشخصية جاك الإبراهيمية، محاولة علمية لعلاج الذاكرة اللاهوتية التي ما تزال حاضرة وغير قادرة على التصالح مع واقعها.

وحلول ذاكرة إبراهيم في جاك، كان من القوة بحيث لم يفلح (التنويم الإيحائي) في إخراجها منه.

٣- ثيتس نهات هنه: جوهر الفهم. جمعها بيتر ليفيت. ترجمة: عبدالوهاب المقالح، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء ٢٠٠٤، ص ٢٣

٤-القمني، ص ٥٣

٥-الرواية، ص ٨٣

وهذا النوع من التقمص غريب في الحالات النفسية المختبرة من قبل علم النفس والتحليل النفسي؛ وهو ما يمكن أن يشير إلى أننا أمام شخصية إبراهيم اللاهوتية التي ذهبت بعيداً في تصديق ما اختلقته إلى حدود نعرفها من قراءاتنا للكتب السماوية المقدسة، والتي منها الادعاء بامتلاك أرض الآخر بتفويض من الإله الواحد، لتكون وطناً بديلاً! هذا الاحتلال في اللاهوت، يمكن أن نجد له معادلاً في الرواية من خلال «الاحتلال الكلي للذاكرة الحقيقية»؛ أي احتلال الذاكرة المختلَقة (بفتح اللام) لذاكرة جاك الحقيقية. وفي التاريخ، احتلال الذاكرة الإبراهيمية، بنسختها اليهودية، لأرض وذاكرة أصحابها الحقيقيين!

وعلى اعتبار أن الدكتور كارتر يمثل الجانب العلمي، يمكن أن نرى في سرد تفاصيل التحليل النفسي التي يجريها على جاك، وردود أفعال هذا الأخير الرافضة للعودة للواقع صراعاً أو جدالاً بين العلم والدين. ويمكن أن نرى في فشل إعادة جاك إلى واقعه ونزع الذاكرة الإبراهيمية عنه، دلالة على فشل محاولات العلم في أن يكون مرجعية رئيسة منسجمة مع الواقع بدلاً من عيش البشر في عالم وهمي من صنع الدين. كما يمكن أن نرى في المعلومات التي أكدت عدم وجود شخص يسمى إبراهيم فلاح في اليمن (الواحد ١١٥)، تشكيكاً في وجود النبي إبراهيم تاريخياً، يجد ما يؤيده في دراسات تاريخية تشير إلى احتمال أنه شخصية ميتا- تاريخية.

> الغربة والتيه صفة مشتركة بين إبراهيم الرواية وإبراهيم اللاهوت، فقد كان أبو الأنبياء غريبا على بلاد العرب

ويذكرنا اختلاق جاك، اللاواعي، لأصله العربي اليمني في الرواية وتكذيب المستندات الرسمية لما يقوله، بالنزاع بين الديانات حول شخصية النبي إبراهيم، وبما «أعلنه القرآن الكريم حول علاقة النبي إبراهيم ببلاد العرب الحجازية»[٦]، وتكذيب المستندات التوراتية أو سكوتها عن ذكر أية إشارة لزيارة النبي إبراهيم للبلاد الحجازية، وهو من جهة أخرى، يذكرنا بالجدال الذي ما زال قائماً بين الكتب المقدسة المؤكِدة لحقيقة وجود النبي إبراهيم

٦- القمني، ص ١٤



وعلـم التاريـخ الـذي لا يدعـم هـذه (الحقيقـة)، ممـا أدى ببعـض الباحثـين إلى حسبانه شـخصية أسـطورية، حيـث «لـم يعـثر حـتى الآن عـلى أي دليـل أثـري، سـواء كان كتابـة أو نقشـاً... يمكـن أن يشـير إلى النـبي وقصتـه سـواء في آثـار وادي النيـل، أو آثـار وادي الرافديـن، عـلى كـثرة مـا اكتشـف فيهمـا مـن تفاصيـل ووثائـق»[٧]. كمـا أن القصـص الـتي تـدور حـول النـبي إبراهيـم، هـي مـن القصـص الأسـطورية لبـلاد كنعـان ولغيرهـا مـن البلـدان، مثـل تلـك الأسـطورة المعروفـة باسـم (برامـا) الـتي «كانـت واسـعة الانتشـار قبـل ظهـور العبريـين، وعرفـت في بـلاد إيـران والهنـد ومـا حولهـا، وأنهـا أصـل عقيـدة (براهمـا) الهنديـة، وأن العبريـين بدورهـم قـد تبنـوا هذه الأسـطورة وحولوهـا إلى شـخصية إنسـانية، واحتسـبوا (برامـا) جدهـم البعيـد، تأسيسـاً عـلى منهـج التديـن القديـم القائـم عـلى تقديـس الأسـلاف»[٨].

وعـدم وجـود دلائـل تاريخيـة عـلى وجـود النـبي إبراهيـم، كان مدعـاةً لأن تتنافـس التـوراة والقـرآن عـلى الاسـتئثار بـه، وهـو مـا أدى إلى خلـق صلـة بـين هاتـين الديانتـين. وفي هـذا الصدد، يقـول طـه حسـين في كتابـه «في الشـعر الجاهـلي»: «للتـوراة أن تحدثنـا عـن إبراهيـم وإسـماعيل، وللقرآن أن يحدثنـا أيضـاً، لكـن ورود هذيـن الاسـمين في التـوراة لا يكفـي لإثبـات وجودهمـا التاريخـي، ونحـن مضطـرون إلى أن نـرى في هـذه القصـة نوعـاً مـن الحيلـة في إثبـات الصلـة بـين اليهـود والعـرب مـن جهـة، وبـين الإسـلام واليهوديـة والقـرآن والتـوراة مـن جهـة أخـرى..». ومثـل هـذه الحيلـة يمكـن عدهـا عنـد جـاك (ميكانيـزم) مـن أجـل إعـادة الصلـة أو اللُّحمـة بـين العوالـم والأديـان المتصارعـة مـن خـلال العـودة إلى شـخصية إبراهيـم.

إن فقدان الهوية والتيه الذي عكسته الرواية من خلال تعدد الشخصية الواحدة وأماكن إقامتها، عكسته التوراة من خلال تعدد المَواطن المحتملة التي انحدر منها النبي إبراهيم

وإصرار جـاك عـلى أنـه إبراهيـم تـارة، وأنـه يحلـم تـارة أخـرى، ومحـاولات استيقاظه ليتخلص من شخصية جـاك[٩] فيـه دلالـة عـلى تجـذر الشـخصية الإبراهيميـة عنـد المؤمنـين. أمـا اعتقـاده بأنـه يحلـم، فقـد يرمـز الحلـم إلى العلـم الـذي يحـاول مواجهـة جاك بشخصيته الحقيقيـة، والرغبـة في الاسـتيقاظ لهـا هنـا مدلـول عكسي حـين تـدل عـلى الهـروب مـن هـذه الحقيقـة المدعمـة بالأدلـة والبراهـين العلميـة والمنطقيـة والعقلانيـة. وهنـا يقـع جـاك كرمـز للإنسـان المعـاصر في الحـيرة بـين الإذعـان للحقيقـة العقليـة والواقعيـة، وبـين الرضـوخ لذاكرتـه وموروثـه الديـني الإبراهيمـي الرافـض لقبـول الواقـع.

ومـن أجـل عـلاج جـاك وتخليصـه مـن الذاكـرة الإبراهيميـة[١٠] تـسرد الروايـة أربـع مراحـل شـبيهة بمراحـل الصوفيـة الإسـلامية لبلـوغ الوعـي، ويمكـن مقارنتهـا عنـد الإبراهيمـين عـلى النحـو التـالي:

مرحلـة الإنـكار - إنـكار أنه جـاك. يمكن أن نسـميها: (المرحلـة الإبراهيميـة) أو (مرحلـة إنـكار الحقائـق العلميـة).

مرحلـة المقاومـة بالهـروب مـن الأدلـة الـتي تؤكـد أنـه جـاك. ويمكـن أن نسـميها: مرحلـة التذبـذب بـين جـاك وإبراهيـم.

مرحلـة الاستسـلام (لواقـع أنـه جـاك بالرغـم مـن عـدم اقتناعـه بذلـك).

مرحلـة التعايـش (مـع الواقـع الجديـد ليكـون فيـه واحـداً غـير منقسـم أو منفصـم).

ويمكـن أن نجـد في هـذه المراحـل عـدة دلالات: فيمكـن اعتبارهـا مراحـل الصعـود إلى (الواحـد) أو (الإنسـان الأعـلى)، أو مراحـل رحلـة النبي إبراهيـم للبحث عـن الإلـه الواحـد، أو المراحـل الـتي قطعتهـا البشريـة مـن تعـدد الآلهـة إلى الوحدانيـة. ويمكـن اسـتنباط هـذه المراحل بالاستشـهاد بالآيـات القرآنيـة الـتي تتحـدث عـن قصـة النـبي إبراهيـم، كمـا يـلي:

٧- القمني، ص ١٦

٨-السابق، ص ١٦

٩-انظر الرواية، ص ١٣٢

١٠-انظر الرواية، ص ١٣١



مرحلة إنكار العبودية للأصنام:

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} الأنعام ٧٤

{قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} الأنعام ٧٨

مرحلة المقاومة: بالهروب من عبادة الأوثان إلى عبادة الكواكب؛ أي الهروب من الشرك إلى الشرك، وفيها عبد إبراهيم ثلاثة كواكب:

{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ} الأنعام ٧٦

{فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} الأنعام ٧٧

{فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} الأنعام ٧٨

مرحلة الاستسلام (لواقع عجزه عن اكتشاف الإله الواحد وخشية الاستسلام لواقع المشركين).

{قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} الأنعام ٧٧

وهنا استسلم إبراهيم لإله لم يتيقن منه بعد، وعندما تخلى عن (مراحل) الشرك هداه الله إلى (مرحلة) اليقين، وهي مرحلة لم يكن ليبلغها لولا مروره بمراحل الشرك السابقة، والتي من خلالها دلّه الله إلى وحدانيته.

{وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} الأنعام ٧٥

مرحلة التعايش (مع الواقع الجديد أو الإله الواحد).

{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} الأنعام ٧٩

وإبراهيم، في بحثه عن الإله الواحد، كان يبحث عن صفة الثبات واليقين، لا عن التبدل والتذبذب. والمراحل الثلاث التي مر بها النبي إبراهيم هي في الواقع عبادات قومه «الثالوث الكوكبي المقدس لدى الشعوب القديمة (القمر الأب، والشمس الأم، وكوكب الزهرة الابن)»(١١)، وانتهى إلى المرحلة الرابعة، وهي الوحدانية.

وشعور إبراهيم بالحيرة التي يربطها القرآن بالشيطان -{كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} (الأنعام ٧١)- يدل على أن الحيرة والتذبذب سببها الشيطان، وهو ما يدل على تشظي الشخصية، يقابله الإرادة وحرية الاختيار التي تعمل على توحيد الشخصية. وهذا ما حدث في نهاية الرواية، عندما قرر آدم وحواء الأكل من الشجرة والعودة إلى العالم الحقيقي اختياراً حراً وليس بناءً على وسوسة إبليس، كما تقول القصة الدينية، وفي هذا تبرئة له.

ويمكن أن نرى في المراحل الأربع السابقة، مراحل اليقظة والنهضة التي مرت بها الحضارة الأوروبية وعلاقة الصراع بين الدين والعلم، ودور العلم والتنوير والإصلاح الديني في بلورة هذه المراحل، من مرحلة إنكار رجال الدين للحقائق العلمية ثم مقاومتها ثم الاستسلام لها، وصولاً إلى مرحلة التعايش معها في ظل العلمانية. وبلوغ مرحلة التعايش، تعرض الرواية الخطة العلاجية ودور العلم فيها: «وحتى ذلك الحين لابد أن يُعزل ويؤمَّن ويتناول بعض الأدوية المهدئة والكيميائية بانتظام، مع القليل من الجلسات التحليلية والعلاجية التي تدرس من خلالها تطور نشاط سلوكه والحلول الممكنة التي من خلالها يمكن النفاذ إلى حل مشكلته»[١٢].

وفي احتلال الذاكرة الإبراهيمية لذاكرة جاك دلالة أخرى، تشير إلى عودة النزعة الدينية إلى المجتمعات الغربية، والصراع الذي يدور بين الذاكرتين هو صراع بين التيارات الدينية والعلمانية. وفي تعايش الذاكرة الإبراهيمية مع واقع جاك إشارة إلى المسايرة، مع بقاء النار تحت الرماد، أو بقاء الأثر الديني في تلك المجتمعات العلمانية كخيار شخصي غير مفروض على الآخرين.

١١- القمبي، ص ٣٨
١٢-الرواية، ص ١٣١



وفقدان الهوية والتيه الذي عكسته الرواية من خلال تعدد الشخصية الواحدة وأماكن إقامتها، عكسته التوراة من خلال تعدد المَواطن المحتملة التي انحدر منها النبي إبراهيم. ففي التوراة، نجد أنفسنا «في متاهة من الدروب، كل منها يؤدي إلى موطن محتمل للقبيلة الإبراهيمية: (أور الكلدانيين) و(حاران) و(أرام النهرين) و(فدان أرام). والجملة التي لم تمل التوراة تأكيدها هي، أن إبراهيم كان (آرامياً تائهاً) - التثنية: ٢٦: ٥).. والمتأمل في سيرة النبي إبراهيم التوراتية، يستشعر مدى صدق هذا الوصف وحال النبي؛ فمن الواضح في إصحاحات التكوين، أنه لم يستقر زمناً في مكان واحد... وعلى الطرف الآخر نجد كتب التراث (الإسلامي) تصر من جهتها، على علاقة وطيدة للنبي إبراهيم بجزيرة العرب، وأنه جد النبي محمد (ص) عبر إسماعيل، وأن إبراهيم وولده إسماعيل من بناة الكعبة الحجازية، البيت الإلهي الذي قدسه العرب قبل الإسلام بزمان»[١٣].

وهناك علاقة مشتركة، في الرواية، بين كل من سام وجاك/إبراهيم، هي علاقة جزء بكل، أو شخصيات في حلم (الواحد). أما في التوراة و«عبر خمسة وعشرين آية. من الإصحاح الحادي عشر بسفر التكوين، تثبت التوراة نسب النبي إبراهيم وتصعد به عبر أسلافه حتى تصله بسام بن نوح»[١٤]. وهذا الأصل العرقي الذي يجمع إبراهيم وسام في التوراة، تجد له الرواية أصلاً إنسانياً يتجاوز الأسماء والأعراق إلى الجوهر الإنساني متمثلاً في آدم.

وثمة هجرة تجمع بين الإبراهيمين: فتبدأ الرواية بهجرة من ذاكرة جاك إلى ذاكرة إبراهيم. «وأول ذكر للنبي إبراهيم في التوراة يأتي في سياق حديثها عن هجرة قادها أبوه (تارح بن ناحور) مع أفراد عائلته، من موطنهم الأصلي، فتقول: (وأخذ تارح إبرام ابنه، ولوطا بن هاران ابن ابنه، وساراي كنته، امرأة إبرام ابنه، فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان، فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك، ومات تارح في حاران)»[١٥].

وثمة قواسم مشتركة أخرى بين الروايتين: فجاك في الرواية يتحدث اللغتين: الإنجليزية والعربية، وأقر التراث الإسلامي أن لسان النبي إبراهيم لم يكن عربياً، وإنما سريانياً حوَّله الله إلى اللغة العبرانية عندما عبر نهر الأردن إلى كنعان. وهذا التحول في اللسان حدث لجاك فجمع بين الإنجليزية والعربية, وهو ما جعل الأطباء في حيرة من أمرهم. ومع التحول في الذاكرة تغير اسم جاك إلى إبراهيم، ومع هجرة النبي إبراهيم إلى جنوب الجزيرة العربية «بدَّل اسمه من (إبرام) إلى (إبراهيم)»[١٦].

أخيراً، يمكن أن نرى في الذاكرة الإبراهيمية، التوحيدية، عنواناً لليقين والحقيقة المطلقة المقدسة لذاتها والمدنسة لغيرها. وهي بهذا المعنى، تُنهي التعددية الدينية التي ضمنت التعايش. وتأتي الرواية بمعنى جديد للتوحيد تكرس فيه لتعددية صحية تتعايش فيه الحقائق جنباً إلى جنب دون احتلال أحدها لذاكرة الآخر وتاريخه وأرضه.

١٣- القمي، ص ٤٨ - ٧٣
١٤- القمي، ص ٢٣
١٥- القمي، ص ٢٣ – نقلًا عن سفر التكوين: ١١: ٣١-٣٣
١٦- القمي، ص ٧٩



كتابُ خليل غريب المفتوح

بقلم : حسان بورقية
كاتب وفنان تشكيلي مغربي

تبدأ عمليةُ نموٍّ ما يمكن أن نسميه لوحة أو عملا فنيا - لا يحب خليل غريب أن نسميه فنانا، أو أن نسمي عمله لوحة - وهي تسير كتيارٍ هوائيّ باتجاه الالتقاء مع فكرة تمُرّ، كلمةٍ تعِنُّ، حركةٍ أو أثاثٍ مهمل، مادّةٍ مّا في قارورة أو مع رطوبة في جدار.. ينمو من الوسط، لا من البداية، بين كل هذا، ليلتقي معك - كمترحِّلٍ في «اللوحة»، مع اليد والعين.. بعيدا عن الصرامة المزعومة والقواعد الجمالية المدرسية، وبلعبة «التلعْثُم» المسمّاة حياةً، يصير هذا الشيءُ كلَّ شيء، كأنه نداء أو صدى لصوت الشاعر البرتغالي الكبير، فرناندو بِّيسُوا، عندما قال في كتابه «كتاب اللاطمأنينة»، من ترجمة الصديق المهدي أخريف: «روحي تيارٌ بحري أسود، دوارٌ أسود حول الفراغ، حركةُ محيطٍ لانهائي حول ثقب من هباء، وفي كل المياه الدّوّارة تطفو جميعُ صور ما رأيتُ وما سمعتُ في هذا العالم - منازل تمرُّ، وجوهٌ، كتبٌ، صناديق، مخلفاتٌ موسيقية، مقاطعُ أصواتٍ في دوّامةٍ عسْراءَ ليس لها قرارٌ».. هو ذا ترحُّلُ خليل غريب، عبور بلا قرار، كل شيء فيه يمرّ ويتقاطع، عينُه تطارد اللهبَ الحيَّ ويدُه تحفر في ما لا يُرى..

المقهى الأزرق، «ازْريرَق» كما جاء في أعمال الكاتب المغربي الكبير إدمون عمران المليح الأدبية والفنية.. حيث كان يلتقي بخليل غريب، ويتأمل أعماله في صمت. كأسُ شاي أمامه وهو مستغرق في المحيط الأزرق المتراجع عن «القْريقِيّة»، رحلة الجير البحرية وشجرة التين المحاذية لجدار المقهى... أصيلا: كتاب خليل غريب المفتوح.. وهو بجلبابه الصوفي، عائدا من رحلته بعد أن خاط ما خاط من دروب، وقد غنم ما غنم وجمع آثار مخلفات

الريح الليلية، وسوّى النوتات البصرية في ذهنه أولا: هكذا تراءى لي خليل غريب، دون ضجيج، صامتا صمت المواد التي يرسم بها بعيدا عن المفاهيم والاتجاهات الفنية، وفاتحا لها سبل التأمل الذي جمع بينه وبين إدمون عمران المليح في كتبِ صداقةٍ ثلاثة عن تجربته.

يختزل خليل غريب معاني الوجود في قِطعِ أوراق بسيطةٍ أو مُقوّاةٍ صغيرة، يخطّ عليها استعاراته كما كان يحط القُبلة على ظهر يدِ أمه، عندما يعود إلى البيت. من خطواته وحريتها - هو المشّاء الجيد- تمتد يدُه لجمع كل ما ليس في «محله».. وسوف يتكفل هو بتدبير إقامة جديدة له.. سوف يجد لها مكانا، يُؤرْشِفها، وسوف يسمح للرطوبة والريح وملوحة الهواء الزيْلشي (نسبة إلى مدينته أصيلا) بأن يمارسوا معه لعبة «التطهير»، إلى أن ترتاح عينُه لدرجة عَطانةِ ورقِه وكارطونِه، إلى أن يخضرّ، يتعفّن وتنبثقَ منه الحشراتُ والفراشات ويبدأ في التحلل، وتخرج منه أيضا المجازاتُ والصمتُ، ويصير ما بين يديه مجهولا، لا مُنتَظرا وضربَةَ قدَرٍ غير متوقّعة.. ساعتها تتكفل يدُه بالبقية، كأن الأمر لديْه يتعلق برغْبة أحشائية تدفعه إلى طمس الآثار وتدمير الوصايا وحجب الوثائق... بحركات دائرية، ملتوية، مباشرة أو اعتباطية، تلعب يدُه بالنّيلة، الجيرِ، الطباشير، مسحوق الجوز وغيرها من المواد التي تخدش أحيانا وجوه ورقه ليحفر لها أخاديد في الظل، ليمحو بها اسْمَه، ليترُك فيها شبيهَه، أقنعتَه وانطباعاته المفتونة بالعابر، الزائل والآيل إلى الامّحاء.. وربما كانت تلك الانطباعات - كما قال دريدا - هي الأصل بالضبط لما يُدعى على نحوٍ غامضٍ للغاية جمالُ الجميلِ، كذكريات الموت..

منذ أن عرفت خليل غريب، من سنوات عديدة، كان ذاك دأبه.. يطمس السياقات العامة للملفوظ منها، لِما لم يجد له مكانا «لائقا» فيها، يقوم باجتثاثها، من الشارع، من البحر، من الحديقة، من السوق، من البنايات، من مقالب القمامة.. ويقوم باستيداعها كجهاز وثائقي وتذكاري للوقت، للزمن وله.. حيث إن عملية «التوثيق» هاته، لا تحدث إلاّ في مكان الانهيار الذي يسمّى ذاكرةً... لهذا نجد أن يده تسمح لنفسها بعملية إعادة وتكرار ونسخٍ للأشكال، للحركاتٍ وللمواد؛ ونحن نعرف أن الدافع القاهر للتكرار لا ينفصل عن دافع الموت وعن التدمير.. وبالتالي كلّ ما «يرسم» به خليل، وما «يرسم» عليه، مهدَّدٌ بالتدمير.. بل حتى وجوه الورق الذي يشتغل عليه، وجوه بلا معالم، بلا كتابة؛ أي فارغة، ومع ذلك يمعن في مضاعفة حجبها وطمسها وإخفائها، يمزق أضلاعها ويتدخل في بتْر زواياها ويعيد صياغة شكلها الأول، كأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا أو يشتغل إلا في ظل الخراب الذي يخول له فتح مسارب جديدة فيه.. هكذا ينفجر الفكر في صمت «اللوحة»، ولا تعلن نقطُ الاصطدام عن نفسها بالمفاهيم، بل بتلك السعادة أو المتعة التي تتخذ لونَ «الحقيقة» المناهضة لتقاليد التّراتُب بين مركزٍ (غربي مثلا) يدور في فلك أسئلته وقضاياه الخاصة وبين محيطٍ يريد أن

> يختزل خليل غريب معاني الوجود في قِطعِ أوراق بسيطةٍ أو مُقوّاةٍ صغيرة، يخطّ عليها استعاراته كما كان يحط القُبلة على ظهر يدِ أمه، عندما يعود إلى البيت

يتخفف من هذا المتوارث... وهو ذا ما يسميه إدمون عمران المليح - استنادا إلى والتر بنيامين- بالمزاج المخرِّب، الذي لا يعرف سوى كلمة سر واحدة هي: الابتعاد أو «إخلاء المكان أمام ما كان، لأنه مزاج مُحْدِثٌ وخالصٌ.. ذلك أن التخريب، بهذا المعنى، يعطي صفة الشباب لِما ينجز، بتنظيف الطريق من آثار شيخوختنا الخاصة: وهو أمرٌ يصيِّر المرء صافيا وخالصا، لأن كلّ استبعادٍ للمثَل يعني بالنسبة إلى الذي يدمِّر، نوعا من التخفُّف المرحِ والتام، والتجذير للحقيقي للموقف الخاص.» ولعل أصل المتعة يكمن هنا، في هذه الأليغوريا التي تتمنَّعُ عن كل شرح أو تستنفذ كلَّ تحليل، حيث يصبح «أبيضُ الجير وأزرقُ النّيلَةِ القابِلُ للّمْسِ بالعين - كما يقول المليح متحدثا عن أحد أعمال خليل- إحساسا طافيا كالرمل الذي يتذكّرُ مدَّ البحر وجزره».



لا يمكن لعمل مماثل أن يتم دون هذه الرؤية التي تقفز فوق قرون تاريخية وتمدّ جسورا جديدة في الهواء، تهدم أصنامَ لغات متفق عليها وأغلالَ فكرٍ جافٍّ ليس بهدف إخراج بذرة جديدة قاطعة، إنما لِلمْس منافذ اللهب الحيّ؛ «أي الصورة في لامرئية مرئيتها»، متعة الإبصار في فوْريةِ رؤيةٍ مّا، حاضرة في لحظةِ كلّيتِها، في طراوة براءتها قبل أن تقع في ضجيج لا يفكر لكلامٍ جانبيٍّ يستثني الإحساس الصامت الأساسي لاستقبال العمل الفني، لأن «الرسم عندما يؤوب إلى حقيقته، إلى عزلته مع نفسه، يشاطر الشعْرَ في قدَرِهِ».

بعيدا عن أية نظرية فنية تدّعي المركزيةَ ومصدرَ النور والمعرفة، أيا كان مكانُها، يُقيم خليل غريب عند ما تبقى من الآثار، يُفْني فيها تأمّلاته..ويولدها من جديد. ينصت للغياب الذي لم يبق منه سوى الصدى ويرحّب بهذا الحضور الراهن الذي يمضي باتجاه آفاق أَلِقةِ الزّرْقةِ، متحلّلا من لغته وواهبا نفْسَه لكلام الجير الأبيض.. وبين هاتين اللحظتين، في الشهقة الأخيرة، يبدو كل شيء بهيا وعزيزا.. أهي فضائل الفنان المتوحد الذي يشتغل مُعْنى بإضافة غصنٍ إلى شجرة التشكيل في مشهد بلاده الفني؟ نعم..في الوقت الذي يُدمِّر فيه الرسْمَ المعروف وآلياته المدرسية المتداوَلة، يعدِّد مراكزَ التّهل ومراكز الرؤية، نافيا نفسه إلى مناطق أخرى يستلهم منها عمْقَ النظر وإبداعَ هويةٍ فنية جديدة ولغة جمالية جديدة أيضا، مادّا بذلك جذورَ تواصلٍ بينه وبين شعراءِ مادةٍ آخرين، انتموا إلى أزمنة وأمكنة متباينة.. كما هو الأمر في عالم الأدب والكتابة، عندما يضيق المبدع بتوقُّفِ مجرى الإبداع ونضوبه في لحظات تاريخية معينة، عندما تجفِّفُ سلطةُ المعلوم شعاعَ النور من سماء التخيّل، وتفرض على المبدع الامتثالَ للقوالب الأسلوبية الراكدة، يُشْترط أن يتسلح هذا الأخير ليدخل إلى جغرافيا الفن غازيا حتى يتأتى له خلقُ عشيرةِ «وحوشه» الفنية. كم مرة قال صديقنا إدمون عمران المليح ذلك على صعيد الرواية، وكم مرة لم ندرك أهمية ما قال..

> الرسم عندما يؤوب إلى حقيقته، إلى عزلته مع نفسه، يشاطر الشعْرَ في قدَرِه

إن كُتُبَ «العين واليد»، «رحلة الجير البحرية» و«كتاب الأم» التي خصصها إدمون عمران المليح لعمل خليل غريب، كلها احتفاء بالآثار الفنية التي «تعرض الحياة في بعدها الإنساني، الحياة الطافحة، المتواضعة، القريبة من الجير، من التراب ومن المادة الكامنة في النفايات، الخراب والملفوظات..

والبهيـة لكونهـا لا تقـدم للنظـر شـيئا سـواها. هـذا البهـاء، في هشاشـته وضعـف بنيتـه، هـو منبـع الحيـاة، هـو حامـل الحيـاة إلى قوَتهـا وصحتهـا الريانـة. هـو ذا مـا قصـده نيتشـه عندمـا قـال في كتابـه «شـوبنهاور مربّيـا»: «يبـدو لي أحيانـا أن الفنـان والفيلسـوف بخاصـة، مجـرد صدفـةٍ في عـصره.. فالطبيعـة لا تقفـز أبـدا، لكنهـا مـع ظهـوره تقـوم بقفزتهـا الوحيـدة: قفـزة المَـرَحِ، لكونهـا تحـس أنهـا تحقـق هدفهـا لأول مـرة، هنـاكَ حيـث تُـدرِك أنهـا بلعبهـا مـع الحيـاة كانـت في مواجهـةِ أصْعَـبِ تقابُـلٍ. وهـذا الاكتشـاف يجعلهـا تلمـع ويعلـو وجْهَهـا عيـاءٌ مسـائيٌ ناعـمٌ، يسـمّيه النـاسُ بهـاء».





الأكاديمي التونسي حمادي بن جاء باللّه لـ«ذوات»:

العقلانية والحرية أساس الحداثة وعنهما تنشأ قوة الأمم

حاوره: عيسى جابلي

قال الدكتور حمادي بن جاء باللّه، إن ركيزتا حداثة عصرنا هما العقلانية العلمية والحرية، مشيراً إلى الفرق بين ملامح الحداثة؛ أي مظاهرها الخارجية التي تبدو جلية في عالمنا العربي المعاصر، وأسسها العميقة التي ظل أبعد عنها ما يكون.

ورأى الأستاذ بن جاء باللّه، في حوار خصّ به مجلة «ذوات»، أن ما تحقق عربياً يبقى غير كافٍ، فذكر الخطوات الإيجابية الساعية نحو التحديث، كتوحيدٍ نظام التربية في تونس، وتوحيد القضاء، وتحرير المرأة، وتنوير العقول، مؤكداً أن الخطأ كان في تأجيل الحرية.

أما عن علاقة سيرورة التحديث في العالم العربي بما يحصل فيه اليوم منذ ٢٠١١، فقد أشار إلى أن التسمية الحقيقية هي «ثورة الشغل والحرية والكرامة الوطنية»، وهي «غائيات متعالية» أبدى مخاوفه من ألا تنجح في التحقق إلا في تونس، في ضوء ما تشهده بقية الدول كمصر وليبيا واليمن وسوريا من اضطرابات.

وأضاف بن جاء باللّه، أن عربيّ اليوم في وضع أفضل بكثير مما كان عليه في أي وقت مضى، مؤكداً أن الفعل الإنساني عامة والعقل السياسي خاصة لا ينتهي إلى خيبة بإطلاق، ولا إلى فوز بإطلاق، في تعليق على أطروحة «إخفاق الحداثة عربياً».

وأكد بن جاء باللّه أن «الفكر الحديث عامة هو فكر نقدي»، ومن الطبيعي أن يراجع «الغرب الاستعماري» سيرته، دون أن يعني ذلك أن نتخلى نحن عن تبني قيم الحداثة على حد تعبيره.

وحمادي بن جاء باللّه مفكر تونسي وأستاذ الفلسفة بالجامعة التونسية، وهو أستاذ مبرز في الفلسفة، وحاصل على دكتوراه في تاريخ الفلسفة الحديثة، ودكتوراه الدولة في إيبستمولوجيا العلوم الفيزيائية الحديثة. له مساهمات علمية منشورة في مجلات ودوريات عربية وأوروبية منها الموسوعة العالمية للتربية والموسوعة الفلسفية العربية، وله مشاركات في ندوات وملتقيات علمية في شتى بلدان العالم كفرنسا وإسبانيا وكندا وأمريكا. من مؤلفاته: «تحولات العلم الفيزيائي ومولد العصر الحديث»، و«العلم في الفلسفة»، و«الزمن المطلق في الميكانيكا النيوتونية» و«تكون مفهوم القوة في الفيزياء الحديثة».. إلخ.



*** من أكثر الكلمات رواجاً في الخطاب الفكري العربي المعاصر مصطلح «الحداثة»، وفي ظل غياب حد نهائي ثابت لهذه العبارة، هل من ملامح أو ركائز يمكن من خلالها تمييز الأشواط التي قطعها العالم العربي في هذا المضمار - إن كانت؟**

فرق كبير بين الملامح و«الركائز». فملامح الحداثة؛ أي مظاهرها الخارجية، كثيرة وليس ثمة بلد يخلو منها اليوم، وهي أظهر ما تكون في البلاد العربية، حتى تلك التي تعيش اليوم قيمياً في القرون الوسطى. فنحن نستعمل جميع منتجات الحداثة من تقنيات، ووسائط تكنولوجية، وأدوات النقل والاستشفاء والزراعة، بل نحن نفوق أحياناً بعض البلدان الصناعية في بعض تلك المظاهر. غير أننا نقتني ذلك كله «جسداً بلا روح» كما يقال مجازاً. ففرق بين أن تستخدم نتائج العلم وأن تمتلك العلم؛ وفرق بين أن تمتلك «الصيغ العلمية» كما تدونها «المتون المدرسية» والملخصات العامة، وبين أن تمتلك الروح العلمية التي صدرت عنها تلكم الصيغ المدرسية، وتحولت إلى موجودات تقنية. وتلك الروح العلمية هي ما عليه «العمدة» أو «الركيزة» الأولى للعصر الحديث. وإذا ما سيطرت «العقلانية» على ثقافة ما تبعتها دون تأخر يذكر في حياة المجتمعات الحرية. فالعقلانية العلمية والحرية هما المحددان لحداثة عصرنا. وعن هذين المحددين تنشأ قوة الأمم؛ أي قدرتها على مغالبة التخلف؛ أعني الجهل والفقر والمرض.

> إذا ما سيطرت «العقلانية» على ثقافة ما تبعتها دون تأخر يذكر في حياة المجتمعات الحرية

أمّا نصيبنا من الحداثة حين ندركها على هذا النحو؛ أي باعتبارها بنية أركانها العقلانية والحرية والقدرة على مغالبة التخلف، فلك في التقارير السنوية التي تصدرها الأمم المتحدة في التنمية البشرية، ما يشير إلى أننا آخر أمم الدنيا في



جميع المجالات تقريباً. فنحن الشعب الوحيد الذي بقيت أرضه تحت الاستعمار المباشر الصريح في فلسطين، أو في الخليج العربي. وما يجري في سوريا، وما جرى في العراق، يشير إلى إمكان عودة الاستعمار التركي في ثوب جديد، وإمكان تزايد استشراء التعالي الفارسي، تماماً كما كانت أوضاعنا قبل الإسلام، أيام كنا مستعمرات فارسية أو بيزنطية.

*** عندما يتعلق الأمر بالحداثة في مفهومها ومنجزها الغربي، نلاحظ أنها سيرورة متكاملة شملت مجالات الحياة المختلفة على حد سواء، خلافاً للحالة العربية، التي يبدو أن الحداثة فيها بوصفها منجزاً قد تفاوت أداؤها من مجال إلى آخر، أولاً: ما هي المجالات التي استقبلت الحداثة وخطت فيها أكثر من غيرها؟ ثانياً: ماذا يعكس هذا التفاوت؟**

الاسم الصحيح للحدث العظيم في تونس هو ثورة «الشغل والحرية والكرامة الوطنية»

إذا تواضعنا على أن أركان الحداثة هي العقلانية والحرية، بما هما الشرطان الأساسيان لبناء الأمم القوية، انتهينا إلى أنّ ما تحقق في البلاد العربية غير موف بالغرض على أهميته أحياناً. غير أن ما ينقصنا، قبل كل شيء، هو أن تدرج تلك الإنجازات في أفق صحيح، ولو لم يسلم من الأخطاء. وهو ما فعله الزعيم الحبيب بورقيبة رحمه الله. فأخطاؤه مثل أخطاء جيله من الزعماء الوطنيين، كعبد الناصر وبومدين، رحمهما الله، جميعهم ذهب به الرأي إلى أن الشعب يجب أن يقاد، وأن الديمقراطية ترف لا يغني في مقاومة التخلف والاستعمار... غير أن ما يميز بورقيبة عن نظيريه الجزائري والمصري أن أخطاءه واقعة في أفق صحيح، فضلاً عن أن بورقيبة كان يعتقد مثل «أوغست كونط» أن الديمقراطية تأتي بعد تحقيق الإقلاع الاقتصادي، وانتشار الوعي، ورفع الأمية، بتعميم التعليم إلخ.

ولم يدرك أن تأجيل الحرية لا يقل خطراً عن نفيها. أخطاء بورقيبة واقعة في أفق التحديث يطلب من مغارسه، ووفق متطلباته الذاتية، وأولها توحيد نظام التربية، وتوحيد القضاء، وتحرير المرأة، وتنوير العقول عامة، وهو ما يفسر أن تونس تجاوزت السلبيات البورقيبية بضرب من المفارقة، حيث إن ذلك التجاوز أنجز في إطار الوفاء الموضوعي للروح التحديثية البورقيبية. ولعل ثورة شباب مدرسة الجمهورية هي النفي المعلن لسلبيات العهد البورقيبي الذي امتد موضوعياً من الاستقلال حتى ١٤ يناير (كانون الثاني) ٢٠١١.

ونعني بهذا الانتقال من مرحلة بناء الدولة الوطنية التي صمدت، والحمد لله، لمحاولات زعزعتها، التي كانت أولاها التفويت في جامع الزيتونة المعمور لعبث العابثين، حتى الاغتيالات السياسية والاعتداءات على الجنود والأمنيين، مروراً بإهانة العلم الوطني ومحاولات خلخلة مدرسة الجمهورية... نحن ندخل اليوم بعزم لا يلين مرحلة بناء الدولة الوطنية الديمقراطية في إطار توطيد المشروع التحديثي البورقيبي. وبالتالي، فما يجري اليوم في تونس هو انتصار البورقيبية على ذاتها. ولعل ما يشير إلى ذلك اجتماعياً وسياسياً ما لقيه تيار سياسي حديث النشأة، يعلن انتماءه إلى المدرسة البورقيبية، من صدى واسع في صفوف التونسيين... وبالتالي لا أظن أن مسألة التحديث في البلاد العربية تطرح على أنها مسألة تفاوت في الإنجاز، بل إن الأمر يتجاوز ذلك كثيراً، ليطرح سؤال الأفق الذي يندرج فيه الفعل السياسي، والأسس التي يقوم عليها في العالم العربي. والحق أنه ما دمنا نبني وعينا بذواتنا ورؤيتنا لأوضاعنا



على اتهام «الآخر» ولعنة «الغربي» و«الحداثي» و«العلماني» إلخ، فلا أظن أننا سننتصر قريباً على عوائق تقدمنا. فهل من سبيل إلى التحرر من الاستعمار مهما كان شكله ومجاله إلا باكتساب ما به قوة الأمم القوية؛ أي العلم والحرية؟

*** هل ترون علاقة بين ما سمي بـ«ثورات الربيع العربي» وبين السيرورة الحداثية في العالم العربي الإسلامي، بمعنى هل يمكن اعتبار هذه الثورات استجابة لسيرورة التحديث؟**

الاسم الصحيح للحدث العظيم في تونس هو ثورة «الشغل والحرية والكرامة الوطنية». أترك القول الشعري - على محبتي له - للقادرين عليه. ويمكن إجمال معنى



تلك الثورة في المطالبة بالشغل، باعتبارها المطالبة بالاستقلال، حتى لا يكون أحد عالة على أحد، وحتى يكون عرق الجبين هو ما نأكل به خبزنا بشرف. والاستقلال هو شرط الحرية، فلا حرية لمن لا يأكل مما يزرع، ولا يلبس مما يصنع، سواء تعلق الأمر بالأفراد أو بالشعوب.. المطلب الأول اقتصادي وأخلاقي معاً، والمطلب الثاني ميتافيزيقي وسياسي معاً، وعنهما تكون كرامة الأوطان.. شعار رائع وبرنامج اقتصادي وسياسي وحضاري لا تعبر عنه عبارة «ثورة الياسمين» أو «الربيع العربي».

ويؤسفني أن أضيف أن تلك الثورة التي وقعت باسم تلك الغائيات المتعالية، إنما وقعت في تونس وحدها... وطمحت إليها بلاد عربية أخرى، كمصر واليمن وليبيا وسوريا.. وما أخشاه فعلاً هو ألا تنجح تلك الثورة بتلك الغائيات إلا في تونس. والفضل يعود في ذلك إلى توفر شروط ذاك النجاح في تونس وحدها، وهي الشروط التي وفرتها دولة الاستقلال بأفقها التحديثي الملائم على سلبياته التي ذكرنا. فإخواننا المصريون ما زالوا في طور صيانة الوطن قبل المواطن، وما زالوا مكرهين على أن يعلو عندهم «صوت المعركة» على «صوت الحرية». أكرهت مصر على ذلك أمس بفعل قوى استعمارية، وهي تكره عليه اليوم لتحفظ وجودها بفعل بعض أبنائها. ولا أرى لمصر مخرجاً مما أكرهت عليه، بعد أن تبين لها أن «الحرية» و«الديمقراطية» و«المواطنة» وقعت بين أيدي قوم شعارهم «طز في مصر». وهل هناك ضلال أبعد من ذلك؟ كان الله في عون مصر العزيزة.

لم نجرؤ بعد على تبني قيم زماننا، لنحولها إلى برامج سياسية واجتماعية واقتصادية واعية ومريدة ومتناسقة

أما ليبيا، فهي تدفع ضريبة قرابة نصف قرن من «الهذيان الثوري الثري» الذي قضى على نواة الدولة الليبية الناشئة، فترك المجال واسعاً للقبلية و«العرقية» والإرهابي والعجفاء والنطيحة... ناهيك أنه، بعد أن مضى القذافي إلى ما قدمت يداه، أعلن أحد خدمته استقلال الليبي بعد ذهاب ليبيا، وبعد أن تم اقتسامها لأجل غير مسمى بين الأجانب. وهل من كرامة للمواطن بعد ذهاب الوطن؟ ومن تجليات عبقرية السيد عبد الجليل أنه أهدى المواطن الليبي ما يستعيض به عن كل ما خسر، إذ أصبح له بفضل الثورة أن يتزوج مثنى وثلاث إلخ...

أما في سوريا فقد تبين، بما لا يدع مجالاً للشك، أن البعث على علاته وتصلبه، أوفى لسوريا الشعب والوطن ممن ثاروا عليه. وقد كان كثير منهم صادقين. وما جرى في اليمن يغني عن كل قول، فضلاً عن أصوات تعالت من جديد تنادي بإعادة تقسيم اليمن على غرار ما جرى في السودان وما قد يجري غداً في ليبيا ..

*** تعددت تفسيرات «إخفاق» الحداثة عربيا في بلوغ أهدافها، فردها البعض إلى سلطة التراث، وردها آخرون إلى رفض الآخر، وعزاها غيرهم إلى اختلاف الواقع والسياقات.... إلخ، كيف يشخص الأستاذ بن جاء بالله فشل الحداثة في العالم العربي؟**

الفعل الإنساني عامة والفعل السياسي خاصة لا ينتهي إلى خيبة بإطلاق، ولا إلى فوز بإطلاق، وإنما هو عنوان بين هذا وذاك. فعربي اليوم، على مصاعبه ومصائبه، في وضع أفضل بكثير مما كان عليه في أيّة لحظة مضت من تاريخه الطويل. والأقرب إلى الحق أنه بدأ يفهم موجبات التحديث الحق، لا سيما بعد أن بدأ يفهم دجل

المتسلطين على إرادته وعقله قروناً طويلة. أحد كبار رهبانية اليمن طبّلت له قناة تلفزية أوتيت من كثرة المال على قدر ما فقدت من الصواب إشهاراً لاكتشافه «دواء إسلامياً» ضد مرض «السيدا /الأيدز» في جامعته الإسلامية، والحق أنه أكذب البرية... وهذا السيد ذاته هدد بمظاهرة مليونية يسخر لها نساء هن كالأشباح السوداء للاحتجاج على ما قد يتجاسر عليه البرلمان اليمني من تقنين سن الزواج ومنع الاعتداء على القاصرات، بمناسبة قيام حركة احتجاج عند موت بنيّة في العاشرة من عمرها ليلة زفافها إلى جلف... فأي خير يمكن أن يرتجى لاحقاً من دجال مثل هذا؟ وأية قيادة يمكن أن يدعيها «إمام» يدعو القوات الأمريكية، وربما الصهيونية، إلى تقتيل أبناء الشعب السوري؟ وما يمكن أن يرجى من «إمام» كل علمه الإفتاء بمضاجعة الزوجة الميتة؟ وغير هذا أكثر من أن يحصى... نحن في حاجة ماسة إلى

نشر قيم العقلانية في صفوف شعبنا وتحرير إرادة أمتنا من عقال القرون... والتقدم آت لا ريب فيه، فما من أمة عقلنت مسالك حياتها، وحررت إرادتها وبقيت مع ذلك متخلفة. ويقيني أن برنامج ثورة شباب مدرسة الجمهورية كفيل بتمكين الإنسان العربي من استئناف ضرب المواعيد مع التاريخ. وهل قوة الأمم إلا بالشغل والحرية والكرامة الوطنية؟

*** في السياق الغربي صرنا منذ عقود نقرأ عن مراجعات توجهت بالنقد اللاذع للحداثة نفسها من خلال منجزها، وهذا ما يجعلنا نحن العرب في حالة حرجة، بل كاريكاتورية، إذ زادت حالتنا تعقيداً بين داع إلى التخلي عن المشروع الحداثي، لأنه أدى إلى الخراب في الغرب، وبين من يدعو إلى ضرورة تبني الحداثة والانخراط في مشروعها بلا شروط، ما موقفكم من ذلك؟ وما الذي ينبغي فعله في رأيكم للخروج من هذا المأزق الخطر؟**

الفكر الحديث عامة هو فكر نقدي، وتلك من أخص خصائص عقلانية عصرنا، ومن أخص خصائص سنن زماننا. لا شيء يعلو على الفكر، حتى منجزات الفكر ذاتها. فما كاد الفكر العلمي الحديث ينجز الثورة الفلكية والفيزيائية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، حتى أنجز ثورة أخرى في علم الطاقة الحرارية (thermodynamique)، وما كاد الأمر يستقر للطاقويين (énergétistes)، حتى اندلعت ثورة علمية ثالثة، هي نسبية «إنشتاين» إلخ... ومعنى ذلك أن ما أنجز ليس إلا نسخة منقوصة مما يجب أن ينجز. فالعقل ليس ملكة تحنيط ما وقع. وهو قوة نفي وتجاوز، أكثر مما هو قوة حفظ وصيانة. ذلك ما لم يفهمه القائلون بما بعد الحداثة من الأوروبيين أنفسهم، فضلاً عن مقلديهم عندنا.

إن العصر الحديث لم يبلغ بعد منتهاه، ولم يحقق قيمه النظرية والعملية، رغم كثرة ما أنجز في أوروبا وأمريكا، وحتى بعض الأقطار الآسيوية. أما نحن فلم نجرؤ بعد على تبني قيم زماننا، لنحولها إلى برامج سياسية واجتماعية واقتصادية واعية ومريدة ومتناسقة. لذلك، بقي فهم الحداثة ونقدها عندنا ضرباً من سوء الفهم يسنده وهن الإرادة... انظر ما يكتب عندنا عن «فوكو» و«هايدجر» لتفهم أين نحن من فهم حقائق الأشياء...

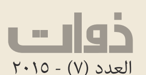
لا بد من أن نلاحظ أنّه، منذ عهد «حمورابي» وقدماء المصريين، لم تتجاسر الإنسانية شرقاً وغرباً على منع الرق منعاً ناجزاً، كما فعل ذلك باي تونس في أربعينيات القرن التاسع عشر، ولم يتجاسر أحد على القول بأن «الأصل في الإنسان الحرية»، كما قالها شيخ التونسيين في القرن التاسع عشر بيرم الخامس. الرق امتد آلاف القرون، فهل ستتخلى عنه الإنسانية في فترة وجيزة لا تتجاور القرون الأربعة؟ ألا يمكن تأويل الإرادة الاستعمارية اليوم مثلاً على أنها من بقايا إرادة الاسترقاق القديمة والوسيطة، وإن في شكل مستحدث؟ أليست ويلات الإنسانية اليوم بسبب عادات اقتصاد الحروب والغزو، مثلها مثل الحروب الدينية وأعمال التبشير؟ ألا يعني ذلك كله أن العصر الحديث، بما هو عصر اكتساب القوة على التقدم بالعلم والحرية لا بالحرب والغزو والاستعمار، ما زال في «الغرب» ذاته في بداياته؟ وإذا كان ذلك كذلك، فما بالك به عندنا؟ «الغرب» يعيش حالة استلاب، بفعل التناقض القائم بين مثله وواقعه، بين ما يؤمن به كبار القوم فيه وما يفعله ساسته.

والمطلوب في هذه الحالة، أن يصلح «الغرب» الاستعماري سيرته، ليضع حداً

للاستلاب الذي يثقل وعيه بذاته. وليس المطلوب أن نتخلى نحن عن قيم الحداثة، أي العقلانية والحرية أو أن نزهد فيها.

والحق أن ادعاء تجاوز «الحداثة» بما يسمى «ما بعد الحداثة»، يشبه تبرير العجز عن إصلاح ما بالنفس من العوج، والوعي الزائف، والهروب من مواجهة، ما كان الكندي يسميه «سنن الزمان». أليس من الغريب أن يبحث «هايدجر» مثلاً عند قدماء اليونان عما يتجاوز به الحداثة الديكارتية؟ وهل قال هؤلاء «الفاتحون الغربيون» إلا ما تعلموه في أرض مصر على أيدي قدماء المصريين؟ فكيف أصبحوا «فاتحين» و«غربيين» مؤهلين للدلالة على ما بعد الحداثة؟ أليس مما يدعو إلى التساؤل اليقظ أن يبحث «نيتشه» عن أسباب تجاوز «العقلانية الغربية» عند قدماء الفرس، مثل زرادشت أو قدماء الفينيقيين، الذين أعلنوا منذ قرون متطاولة موت الآلهة «بانوس»؟ أليس من مظاهر العجز أن تتحول الفلسفة عند هؤلاء إلى ضرب من النعي المتجدد: موت الإنسان وموت الآلهة وموت «الكوجيتو» الديكارتي وسقوط سماء المثل الكانطية ونهاية التاريخ وهلم جرّاً؟

يبدو أن لنا في هذا المنحى الذي اتخذه الفكر الحديث مع المبشرين الجدد بما بعد الحداثة ما يشير إلى مصاعب إنجاز قيم الحداثة. وإذا كان ذلك كذلك، ألا يجدر بالفكر أن يمعن النظر في تلك القيم ويجتهد أكثر في إنجازها؟ أليس من مطالب الحداثة في «الغرب» ذاته أن يقلع «الغرب» عن المنحى الاستعماري مثلاً، نزولاً عند إيمان كباره بأن «الحس السليم أعدل الأشياء توزيعاً بين الناس»؟ وإذا كان الأمر كذلك، ألا يكون من واجبنا نحن أن نجتهد أكثر وبشكل أفضل لتحصيل قيم الحداثة، وجعلها تسري يسيراً في معيشنا اليومي؟ ألا يكون عندها من حقنا نحن التونسيين أن نذهب في غير صلف إلى أنّ أصالتنا تحددت بفضل مدرسة الجمهورية من معدن قيم الحداثة ذاتها؟ وإذا سلمنا بذلك، ألا نكون نحن معشر التونسيين، على قلة ذات اليد وقلة العدد – والكرام قليل –، ألا نكون فتحنا لأمتنا العربية طريق الخلاص... طريق حضارة «الشعب يريد» بديلاً عن حضارة «أصلح الله الأمير»، وهل من سبيل إلى ذلك إلا بثورة «الشغل والحرية والكرامة الوطنية»؟



إعداد: نزهة صادق
باحثة مغربية

باحثون عرب يعاينون تأثير السينما على المجتمعات العربية

أقر العديد من الباحثين العرب، أن السينما شكلت في المجتمعات العربية مظهراً من مظاهر الحداثة، حيث ساهمت السينما في انفتاح هذه المجتمعات، وغيرت عوائدها وطرائق عيشها، ولعبت دورا في تنمية الوعي السياسي (في هذه المجتمعات) وإن بشكل محدود، وفي فترات متفرقة، وأسست لنبرات تحررية وثورية امتد تأثيرها إلى باقي الدول العربية، انطلاقا من مصر.

ومن جهة أخرى، رأى بعض الباحثين أن السينما خير وسيلة من الوسائل التي أثرت وبحرية مفرطة على الوتر العاطفي للمشاهد، إذ عبثت في مخيال جيل الشباب على وجه الخصوص، خاصة أنها قدمت لهم عالماً افتراضياً مثالياً في أغلبه إلى حد الكمال، ما ساهم بشكل مخيف في تعبئة الفراغات المعلوماتية والثقافية التي يعاني منها العقل العربي بصفة عامة، حيث صارت «مستودعا للحكايات، وصانعة للوهم بامتياز» (حسب البعض)، وحتى إن تجاوزت الأسطورة والوهم، وحاولت التقرب من المجتمع، فهي تظل فعلا نخبويا بعيدا بشكل محزن عن الجماهير التي هي في الأساس هدف النشاط السينمائي.

منذ مرور ٨٨ عاماً على إنتاج أول فيلم روائي عربي طويل (مصر ١٩٢٧)، وسؤال السينما يطرح نفسه بقوة في العالم العربي، فقد شكلت في بداياتها في معظم الأقطار العربية مغامرات فردية حققها أفراد بهرتهم صناعة هذا الفن الجديد، والذي جاءهم بأضواء جديدة وبهالات أحاطت نجوماً من الغرب، وأصبحت بعد ذلك مطلباً من مطالب التعبير الجماعي، والرقي الاجتماعي، حيث لعبت السينما دوراً مهماً في تبادل الثقافات بين شتى شعوب العالم، واستطاعت من خلالها العديد من الأفلام أن تؤثر بشكل كبير في منظومات قيم الشعوب، ونقل الكثير من الأفكار والرؤى بين الشعوب.

لعبت السينما دورا في تحرير المرأة وتنمية الوعي

أكد الناقد السينمائي المغربي عادل السمار، أن السينما ساهمت في انفتاح المجتمعات العربية، باعتبارها أحد مظاهر الحداثة في هذه المجتمعات، وإن بنسب متفاوتة. فالسينما الكلاسيكية العربية في سنوات الخمسينيات والستينيات، وخاصة المصرية، ساهمت في تحرير المرأة وخروجها للحياة العامة وارتدائها للباس العصري (تقليدا للباس نجمات الشاشة في تلك الفترة)، وإن كانت حينها لا تعطي صورة حقيقية عن وضعية المرأة في مجتمعات محافظة، فقد كان تأثيرها أكثر في دول شمال إفريقيا مثلا مقابل شبه غياب لهذا التأثير في منطقة الخليج، كما كان التأثير أكبر طبعا، في المناطق الحضرية، بحكم أن السينما فن حضري بامتياز.

وأشار السمار إلى أنه يصعب الحديث عن تأثير السينما على المجتمعات العربية في سياقات تاريخية، سوسيو- ثقافية وسياسية مختلفة، نظراً لصعوبة التعميم على العالم العربي كوحدة متجانسة، فعلى المستوى اللغوي، ساهمت السينما في فرض مركزية مصرية، بحكم هيمنة السينما المصرية، وفرضت اللهجة المصرية المتداولة في الأفلام كلغة وسيطة للتواصل بين الشعوب العربية. مع الإشارة إلى أنها لغة تستعمل فقط في السينما ولا ترتبط باللغة المتداولة على المستوى الواقعي.

وأضاف السمار أن السينما لعبت دوراً في تنمية الوعي السياسي في المجتمعات العربية وإن بشكل محدود، وفي فترات متفرقة. فأفلام بداية الخمسينيات المصرية مثلا تميزت بنبرة تحررية وثورية امتد تأثيرها على باقي الدول العربية، حيث شكلت السينما المصرية الفرجة الأساسية المتوفرة، ما دفع حينها السلطات الاستعمارية الوصية إلى التفكير في توفير فرجة سينمائية ناطقة بالعربية، وخلق بديل لنظيرتها المصرية ذات المد التحرري. ولكن التأثير السياسي ظل محدودا على العموم بحكم طغيان نموذج التمويل العمومي الذي استعمل كوسيلة للرقابة ولتطويع السينما كأداة بروباغندا، إذ نلاحظ هنا طغيان النموذج الميلودرامي على حساب الفيلم السياسي أو الواقعي، وتوجسا في أغلب البلدان العربية من الشريط الوثائقي لما تتميز به من معالجة مباشرة لاختلالات الواقع.



السينما واللعب على الوتر العاطفي للمشاهد العربي

ذكرت الكاتبة الجزائرية سلمى قويدر، أن السينما في المجتمعات العربية تلعب وبحرية مفرطة، على الوتر العاطفي للمشاهد، وتخلق، خاصة لدى جيل الشاب، حالات كبيرة من الانبهار، من خلال التصوير السينمائي الذي يكون في أغلبه افتراضياً مثالياً إلى حد الكمال في نظر العقل المتلقي، وبذلك فهي تساهم بشكل مخيف في تعبئة الفراغات المعلوماتية والثقافية التي يعاني منها العقل العربي.

وعلى الرغم من أن أسلوب التلقي، كما أضافت الكاتبة، قد يختلف من جيل لآخر، فإننا نسجل نتائج مهمة انبثقت من الاحتكاك بهذه الصناعة، حيث إن التفتح النسبي وغير المدروس للفرد العربي ومجتمعه عامة، جعل منهما لقمة سائغة.

وتشير إلى أن الصّورة والتقنيات البصرية تعدّ ذات تأثير بالغ وخطير على العقل البشري، فما بالك بالسينما التي تعتبر صناعة حقيقية، ومن أكثرها تأثيرا على سلوكيات الفرد والمجتمع، فالصورة والتأثيرات البصرية، إضافة إلى طبيعة النص والإخراج والتمثيل، هي أكثر العناصر إيصالا للرسالة المبتغاة من العمل السينمائي، وقد تذهب إلى حد الدعاية لأفكار معينة وقضايا إنسانية، وسياسية وحتى تاريخية واجتماعية.

وأكدت قويدر أن السينما ساهمت على مر العصور في فرض طريقة عيش معينة، وتوجهات أيديولوجية، وأثرت حتى في أسلوب الحياة العادية والموضة العالمية التي مست العرب، فتداخلت الهويات، وأصبحت مثلا تسريحة «مارلين مونرو»، مثالا للأنوثة، في خمسينيات القرن الماضي، وحذاء «جون ترا فولتا» صرعة بين الشباب العربي في السبعينيات، وشخصية زعيم المافيا الإيطالية مثالا للرجولة.

وأوضحت الباحثة الجزائرية، أن المجتمع العربي تأثر بالقصص التي جاءت أغلبها بنظرة غير موضوعية، وراح يصدق كل ما تمليه عليه السينما الأمريكية خاصة، والعالمية عموما، متجاهلا البحث عن حقيقة ما وراء كل ذلك التلفيق الذي يأتي في أغلبه على هوى المخرج والجهات المنتجة، وهذا هو الخطر المحدق الذي يحوم حول الحقائق التاريخية.

وأشارت إلى أن المزايا المهمة التي لا يمكن إنكارها في الصناعة السينمائية الجادة، تتمثل في الأفلام المقتبسة من الروايات، والتي تؤثر بشكل كبير على القارئ، وتعطي لأبطال تلك الأعمال روحا، تجعل الرواية كائنا يتنفس ويلفظ مكنوناته، وهو برأيها، حل مثالي للعازفين عن المطالعة.



السينما العربية أسطورة ومستودع للحكايات

قال الباحث المصري رجائي موسى، إن السينما تعمل اليوم لمجتمعاتنا مثلما كانت تفعل الأسطورة في المجتمعات القديمة، فهي مستودع للحكايات، وهي أيضا تصنع الوهم بامتياز؛ الوهم الذي من شأنه أن يجعل المرء يبحث وبشكل دائم عن وجوده، وطرائق عيشه. تعمل السينما عمل الذاكرة أيضا، فهي تظهر كتهديد للسؤال السابق، الذي يعنى بالدور، لأنه سؤال سلطة. والسلطة تخشى السينما لأنها تفضحها، لهذا تجدها تصنع أفلامها ولكنها لا تصنع سينما، ويأتي الفيلم كجزء من حملاتها الأيديولوجية والسياسية، كبروباغندا.

وتساءل موسى عن الكيفية التي تنفتح فيها السينما على المستقبل، مستدلا على ذلك في جوابه بالثورة المصرية، لأنها برأيه، قدمت استعارات كثيرة من مخزون السينما، حيث رأينا ثلاثية نجيب محفوظ، وثرثرة فوق النيل، وأفلام إسماعيل يس،.. إلخ. السينما هي الوهم الجيد الذي نصدقه، مثلها مثل العملة، والموسيقى، وهي أيضا قصة ما فقدناه أو ما سنفقده، أو رحلة البحث عن خلاص.

السينما في العالم العربي فعل نخبوي

أقر الباحث التونسي عمار بن توبال، أن السينما العربية لم تتحول إلى صناعة بعد، باستثناء الحالة المصرية، لهذا لا يمكن الحديث بشكل جدي عن التأثير الاجتماعي للسينما؛ لأنها خاصة في دول المغرب العربي ما زالت فعلا نخبويا بعيدا بشكل محزن عن الجماهير التي هي في الأساس هدف النشاط السينمائي، باعتبارها المستقبل.

وأشار بن توبال إلى أن تأثير السينما ما زال محدودا، على الرغم من أن بعض الإنتاجات السينمائية كثيرا ما تنزل إلى المستوى الشعبي من خلال وسائل الإعلام الجماهيرية، ولكنها لا تنتقل إلى الجماهير، ليحدث الأثر بالمعنى الذي تتحدث عنه نظريات الإعلام والاتصال التي تتناول تأثير وسائل الاتصال الجماهيرية التي من ضمنها السينما على جمهور المستقبلين، وإنما ينحصر في مجال ردات الفعل، العنيفة غالبا، على أفلام معينة، تم اتهامها من طرف جهات معينة، بالاعتداء على قيم ومبادئ المجتمع، أو ما يصور على أنه كذلك. وغالبا ما تنحصر هذه «الاعتداءات» في ثلاثة عناصر: التاريخ، والجنس، والدين؛ مع وجوب التنبيه إلى أن التاريخ المقصود هنا هو التوظيف السياسي للتاريخ وليس التاريخ كمادة للأخبار.

وأشار بن توبال إلى أن الذاكرة الشعبية القريبة تحفظ الكثير من عناوين الأفلام التي قوبلت بسخط

موسى: السلطة تخشى السينما لأنها تفضحها، لهذا تجدها تصنع أفلامها ولكنها لا تصنع سينما

بن توبال: ما زالت السينما في دول المغرب العربي فعلا نخبويا بعيدا بشكل محزن عن الجماهير التي هي في الأساس هدف النشاط السينمائي، باعتبارها المستقبل

شعبي متأثر بتوجيه من التيارات الدينية التي ترى نفسها الحارسة للقيم الدينية للمجتمع، أو من طرف أحزاب وشخصيات وطنية ترى نفسها بدورها الحارسة للتاريخ، أو للقراءة الرسمية للتاريخ. نذكر: «ريح السد»، و«دار الناس» التونسيين، و«الخبز الحافي»، و«ماروك» المغربيين، و«خارجون عن القانون»، و«الوهراني» الجزائريين، وهي أفلام أصبحت «جماهيرية» وذات تأثير دون أن يشاهدها إلا عدد قليل من الناس، لأن الصحافة تناولتها بشكل سجالي جعل من الجمهور المغاربي، الذي نعلم أن وعيه تصنعه الصحافة بشكل كبير، يتخذ مواقف رافضة لهكذا أفلام، وهذا ما يسميه بالتأثير السلبي الناتج عن الجهل وسوء الإحاطة بطبيعة السينما من طرف الجمهور الذي يعتبر هدفا تسعى السينما، كصناعة، إلى التأثير فيه وقولبة وعيه وفق أهداف وغايات محددة سلفا.

وأوضح بن توبال، أن هذا لا يعني أن التأثير الاجتماعي للسينما منحصر في جانبه السلبي ذي الطبيعة السجالية، وإنما هناك تأثير هادئ، ذو زمنية مديدة تصنعه الكثير من الأفلام المشهورة، والتي تعرض عبر التلفزيون باستمرار أو تحظى بعدد مهم من المشاهدات عبر اليوتيوب.

تأثير السينما في المجتمعات العربية شبه معدوم

اعتبر المخرج الأردني فيصل الزغبي، أن تأثير السينما بسلبياته وإيجابياته أصبح شبه معدوم، إذا ما تحدثنا عن السينما وما يعرض في قاعات السينما العمومية والخاصة، مشيراً إلى أنه «إذا ما تحدثنا عن السينما كمنتج درامي ووثائقي، فإنها أنتجت لغة الرؤيا الفنية التي ورثتها التلفزة وتبنتها، وأثرت بشكل عال من خلال الأعمال الدرامية كمسلسلات وأفلام تلفزيونية ووثائقية، ولم تقتصرعلى المشاهدين فقط، بل دخلت في بنية الإعلام الذي استفاد من شروط الدراما: من تسويق، ومونتاج، ومؤثرات بصرية، والتي لم تصبح فقط جزءا من تقاريره ونشراته وأخباره، بل أكثر من ذلك، ساهمت في التأثير على الرأي العام، وتزوير الحقائق لصالح القوى المهيمنة، وتعد هذه المسألة في جوهرها العنصر المؤثر والجديد».

وأضاف الزغبي أن ما يشكل الخطر الكبير اليوم هو الرداءة الفكرية والرداءة الجمالية التي تنتجها الفنون البصرية، ومنها السينما. فالسينما العربية، برأيه، خرجت من تاريخ السينما العالمية، وأصبحت هامشية، علما أن السينما العالمية أصبحت في متناول اليد من خلال ثورة الاتصالات والأقراص المدمجة.

وأرجع الزغبي عدم تأثير السينما في المجتمعات العربية، إلى كون السينما خرجت من وظيفتها الثقافية والجمالية، وأن المتلقي العربي أصبح قادراً على الكشف والنقد، ومن ثم النفور من سذاجة أفكار وحكايات وطرائق أداء السينما العربية.



وأوضح أنه بما أن السلطات الوطنية في البلدان العربية ليس لديها هم زرع ثقافة السينما في المجتمع، وبما أن المثقف العربي أيضاً لا يدرك هذه الوظيفة للسينما كثقافة وجمال موازية للأدب والفنون الأخرى، فإن تأثير السينما سيبقى محدوداً وسطحياً.

السينما... ذلك المهيمن الكبير

أكد الباحث العراقي محمد علوان جبران، أن «السينما تعد من أكثر أجناس الإبداع تأثيرا على المجتمعات، لأنها تعد بحق سيدة الفنون الإبداعية، لما فيها من عمق وتنوع المواد. ففي مشهد واحد يمكن للصورة السينمائية أن تقدم لك شعرا، ومسرحا، ولوحات تشكيلية تهيمن عليها الموسيقى التصويرية المؤثرة. فعبر هذه المؤثرات الكبيرة والهائلة على المشاهد، نستطيع أن نقول إن تأثير السينما على المشاهد، ومن ثم على آلاف أو ملايين المشاهدين في العالم، قد تحقق بعد هيمنة الواقعية الإيطالية وانتقالها إلى الروس، أيام «الاتحاد السوفياتي»، حيث كان للسينما التعبوية المدروسة والمعدة على نار هادئة أثره الواضح والكبير على السوفيات بشكل خاص. وقد انتقلت حرارة هذا التأثير إلى الكثير من المجتمعات التي كان يهيمن عليها اليسار».

وأوضح علوان أن تأثير السينما كان كبيرا على المجتمعات العربية، خاصة في فترة ما قبل الثورة المعلوماتية، حيث كانت الأفلام تصل العراق تباعا، وكانت أفلام هوليود تصل بعد شهور من عرضها في العالم، مؤكداً «ويبقى يوم الاثنين من كل أسبوع ذو نكهة خاصة، لأنه الموعد الأسبوعي والثابت الذي يتم فيه تغيير الأفلام. وكانت دور السينما تزدحم بجمهورها في ذلك اليوم، صالات معينة تعرض أفلام رصينة لها جمهورها كسينما «غرناطة» و«سميراميس» و«الخيام». وقد حاولت الدولة استمالة الجمهور، فأنشأت قاعة سينما «بابل» الحكومية، وبدأت تعرض أفلاما تنوعت بين الرصانة والتهريج، لكنها فشلت في سحب جمهور سينما «غرناطة» التي كانت تعرض لنا كل اثنين فيلما جديدا في مضمونه وإخراجه الفني، وكانت مجاميع الشباب تجتمع بعد العرض في المقاهي، وتقيم ندوات فنية لمناقشة تلك الأفلام وتقييمها فنيا وفكريا. وهذا الأمر لم يكن يقتصر على العاصمة بغداد، بل شمل المحافظات الأخرى كالبصرة والموصل، وغيرها من المدن».

وأكد علوان أن تأثير السينما كان كبيرا جدا، ليس على المجتمع العراقي فحسب، بل على أغلب طبقات وفئات المجتمعات في الوطن العربي، التي كانت تنتظر تلك الأفلام بلهفة وشغف؛ لأنها تتغلغل بسرعة في وجدان المشاهد وروحه، وهذا الأمر للأسف لم يستمر إلى يومنا هذا، لأن تأثير السينما الواسع على طبقات كثيرة في مجتمعاتنا العربية يتفاوت من دولة إلى أخرى، ففي العراق مثلا تراجع تماما تأثير السينما بعد الخراب الذي أصاب قلب المجتمع في مقتل، فانهارت صالات العرض بشكل مريع، وتحولت إلى محلات لبيع المخللات، والأحذية، والملابس النسائية.



التلميذ والمشروع الشخصي للدراسة والحياة

بقلم: أحمد العمراوي

باحث وشاعر مغربي

يشكل المثلث الهرمي: مدرس / مادة دراسية / متعلم، الحلقة الأبرز التي يجب مراعاتها مجتمعة ومتداخلة أثناء تنزيل أي برنامج دراسي. فإذا كانت المدرسة التقليدية قد صبت اهتمامها على المدرس، باعتباره ملقن المعرفة والعلم، بتحميله كل المسؤولية أثناء التعلم، وإذا كانت قد اهتمت قبله بنوع المعارف التي عليه إيصالها كاملة دون الخروج عن التعليمات المرسومة، فإنها بذلك أهملت العنصر الأهم وهو المتعلم. هذا كلام قد يبدو لنا في حكم الماضي بما أننا أصبحنا نطيل الحديث حول المتلقي ودوره وتفاعله في ندواتنا وكتاباتنا ولقاءاتنا التربوية رسمية كانت أم غير رسمية. ولكن، ألا يحق لنا أن نتساءل: هل تراعي برامجنا ومدارسنا ومقرراتنا الدراسية عبر موادها

الدراسية المختلفة والمتنافرة في ما بينها أحيانا هذا التداخل، وهي تحدد غاياتها التربوية؟ وهي تنزلها عبر الكتب المدرسية؟ وهي تقوم بمتابعتها أثناء الممارسات الصفية.

بين التعليم الجمعي ومراعاة الفروق الفردية عبر الذكاءات المتعددة مسافة قد تطول أو قد تقصر. ويهمنا هنا ملامسة بعض الجوانب التي سيُخلِّفها برنامج دراسي على المتعلم الذي نسعى لبناء شخصيته بشكل متكامل. هذا فضلا عن الدور البارز للأسرة والمجتمع وأماكن العبادة وفضاءات التربية الرياضية والثقافية.

التخطيط قبل التدريس. والتصور قبل التقُّبل. والهدف خلق الاستقلالية لبناء الشخص لا لتمرير المعارف الجاهزة. هذا ما تعلمنا الاتجاهات الحديثة في التربية عامة وفي التعليم خاصة. لا مجال من التأكد من ذلك إلا عبر الدراسات العلمية التي تحلل وتفكك المدخلات والمخرجات لهذا المثلث الهرمي؛ أي عدم الاقتصار على متابعة المواد الدراسية عبر الامتحانات ونتائجها، وهذا يحصل في أنظمة التقويم التي لا تراعي إلا هذا الجانب. وعبر متابعة المدرِّس بتقويم منهجيات وطرق تدريسه ومردوديته، وهذا ما يقوم به التأطير والإشراف التربوي. ثم عبر رصد مدى حصول التغيير في تمثلات التلميذ، وهذا لا يمكن أن يحصل إلا عبر دراسة ميدانية، تنجز قبل وبعد حصول التعلم. وهذا أمر قلما نوليه اهتماما.

تلعب تمثلات المتعلم دورا مهما في نجاح أية عملية تعليمية تعلمية تعتمد المنهاج الدراسي المبني على أسس علمية

تلعب تمثلات المتعلم دورا مهما في نجاح أية عملية تعليمية تعلمية تعتمد المنهاج الدراسي المبني على أسس علمية. وهنا نتساءل: هل هناك في بلداننا العربية، وفي المغرب الذي ننتمي إليه كمثال، دراسات حول تمثلات التلاميذ للمعارف وللمراد منها؟ هل يدرك هؤلاء المتعلمون جدوى وجودهم في المدرسة؟ هل يمتلكون تصوراً بشكل ولو مؤقت حول هدفهم من الدراسة والحياة؟ هي أسئلة كبيرة تحتاج إلى عمل مؤسسي، ولكن ذلك لا يعفينا من متابعتها جزئيا عبر مساءلة عينات من التلاميذ أولا، ثم عبر مساءلة عينة ولو محدودة في الشارع المغربي. وقبل ذلك، فلنوضح مفاهيمنا ونبسطها قليلا. إن العادة التي سنتطرق إليها هي العادة الثانية من العادات السبع التي تحدث عنها وطبقها ستيفن كوفي عمليا: ابدأ والغاية في ذهنك.

العادة الثانية: ابدأ والغاية في ذهنك، أو تمكن من معرفة إلى أين تريد الوصول

يقول ستيفن. ر. كوفي Steven.R.Covey: «الوعي الذاتي والخيال والضمير كلها قدرات بشرية متفردة تمكننا من فحص الابتكارات الأولى، وتولي مسؤولية ابتكارنا الأول؛ أي كتابة نص حياتنا. وبعبارة أخرى، العادة الأولى تقول: «أنت المبتكر» والعادة الثانية هي «الابتكار الأول»... «ونحن إما أن نكون الابتكار الثاني لتصميمنا المبادر أو الابتكار الثاني لجداول الآخرين أو الظروف والعادات السابقة»[1]. وقد يبدو للوهلة الأولى أن ما نقوم به هنا هو مجرد إقحام لنظرية ومنهج يطبق في مجال التنمية البشرية والمقاولات على مجال آخر يرتبط بحميمية الذات والوجدان، وهو المتعلم. ولكن، أليس الكائن البشري ممثلا في الناشئة هو ما تسعى إليه كل تنمية بشرية مستدامة؟ قد يكون الفرق الوحيد بين هذا الطرح وما نرمي إليه هو أن صاحب العادات السبع ومن تبنوا منهجه يرمون إلى إعداد القادة، ونحن نسعى لتكوين الشخص أيا كان. وقد يكون هذا أهم فرق بين «الديمقراطية التعليمية» و«ديوقراطية إعداد القادة» (leadership) بما أن الأولى تراعي ذكاءات الشخص المتعددة، بينما تركز الثانية على إعداد قادة علم وفكر قد يتحولون إلى سلطة لا تطبق إلا ديمقرطيتها هي. هذا التوضيح «لا ينفي كون العادات السبع ذات أهمية قصوى، إذا أخضعناها لوضعنا وظروفنا. فهناك مبادئ عامة في التعليم، وهناك تطبيقات خاصة. وهناك قواعد... وهناك من المتعلمين من يتطلب منا الانتباه إليه أكثر من الآخرين، حيث يجب معالجة وضعيته بطريقة بيداغوجية نوعية بسبب بطء أو هشاشة أو عقد لديه»[2].

١- ستيفن كوفي، العادات السبع للناس الأكثر فعالية، مكتبة جرير، الطبعة: ٢١، ص: ١٢٢

٢- Jalil Bennani. Un psy dans la cité. Entretiens avec Anmed EL Amraoui. ED: La croises des chemins. ٢٠١٣. P: ١٣٧



نحـن نرسـم الفكـرة في ذهننـا رسـما تاما قبـل أن نخرجهـا لأرض الواقـع. قـد يكـون تصميمنـا مـن ابتكارنا مهما كان مسـتوانا العمـري، وقـد يكـون نتيجـة لإمـلاءات الآخريـن. فمـا العمـل؟ بنـاء الفكـرة ذهنيـا أولا. ثـم بنـاء أفـكار أخـرى معهـا وبعدهـا وبتـدرج سـيقود إلى الشـعور بهـذه الأفـكار كجـزء لا يتجـزأ مـن الـذات. والأفـكار سـتتحول إلى قـوة هائلـة قـد تقـود الفـرد، ومعـه المجتمـع، نحـو النجـاح والسـمو، أو قـد تـنزل بـه إلى أسـفل سـافلين. للأفـكار أجنحـة يصعـب إيقـاف تحليقاتهـا، جهـة الحـب أو جهـة العنـف سـتتجه بنـا. إفـراغ الذهـن مـن التخيـل المبني عـلى قناعـات جمعيـة تراعـي المنفعـة والحـق معـا قـد يخلـق إنسـانا مشـلولا تابعـا لا مـشروع لـه ولا نـص في الحيـاة إلا نصـوص

> نحن نرسم الفكرة في ذهننا رسما تاما قبل أن نخرجها لأرض الواقع. قد يكون تصميمنا من ابتكارنا مهما كان مستوانا العمري، وقد يكون نتيجة لإملاءات الآخرين

الآخريـن، أو قـد يخلـق شـخصا اندفاعيـا تتحـول أفـكاره إلى قنابـل موقوتـة باسـم الديـن أو العـرق أو القوميـة أو الأيديولوجيـا أو غيرهـا. وإذن، فبنـاء الشـخص سـينطلق مـن بنـاء: كيـف يبـني الشـخص أفـكاره بشـكل علمـي منسـجم لتتحـول إلى قناعـات واقيـة، تجـذب الخـير (مـن قانـون الجـذب الـذي سـنعود إليـه لاحـق)، وتطـرد مـا قـد ينتـاب الشـخص مـن فشـل.

أظـن أن التمعـن ولـو قليـلا في الـتراكـم الحاصـل عـلى مسـتوى المـواد الدراسـية الـتي تشـحن وجـدان الشـخص وفكـره، وأعـني في المغـرب مـواد: التربيـة الإسـلامية، والتربيـة الوطنيـة والاجتماعيـات والفلسـفة، سـيبين دون عنـاء أي نـوع مـن الإنسـان نـود بنـاءه. لعـل الوصـول إلى الهـدف يبـدأ مـن اليومـي، ومـن الـرضى عـن النفـس؛ أي يُبـنى منـذ اللحظـة الـتي يدخـل إليهـا التلميـذ للفصـل الـدراسي. ومـن المفـروض أن تكـون الأهـداف مرسـومة وواضحـة في ذهـن المتعلـم عـبر كل المراحـل التعليميـة، لأن مـن يفهـم مـا يريـد مـن عمـل يومـه، ويربطـه بالتدريـج بهدفـه مـن الحيـاة، سـيحقق النفـع لـه ولمجتمعـه الصغـير والكبـير. اتخـاذ القـرارات تبـدأ منـذ الصغـر. وضـع خطـة للعمـل الصغـير، هـي مـا سـيجعل الهـدف الأكـبر مـن الحيـاة أكـثر وضوحـا. وعـلى الشـخص أن يمـيز بـين القيـادة والإدارة. نحـن قـد نتعلـم ذلـك، وقـد نميـز بينهمـا ولكـن غيـاب الإرادة الحقيقيـة لـدى الأفـراد في تغيـير ذواتهـم بأنفسـهم هـو مـا يشـكل العائـق أمـام ذلـك. تغيـير يتـم مـن طـرف الجماعـة القائـدة لخـير المجتمـع والنـاس. كمـا قولـه تعـالى: «إِنَّ اللَّـهَ لا

يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ»[الرعد:١١].

في العادة التغييرية الثانية: ابدأ والغاية في ذهنك
يبتدئ رسم الصور من الصغير للكبير عبر المبادئ: الذات – الزواج – الأسرة – المال – العمل – الممتلكات – السعادة - الصديق- العدو – دار العبادة (الدين). مبادئ تُرسَم الصور حولها بشكل واضح أو مبهم تبعا لما تخلقه التربية في البيت والمدرسة والإعلام. أين يقف المتعلم؟ ما المحور (المبدأ) الذي تدور حوله حياته؟ هل تساهم المدرسة والمجتمع عامة في جعل الفرد قادرا على وضع خطة واضحة لحياته؟

لِنَبتعد عن الأحكام الجاهزة، حاولنا الاقتراب قليلا من المتعلم لملامسة هذه العادة من خلال الملاحظة الصفية ببعض المدارس التي نشرف على تأطيرها، ثم استعنا باستطلاع ميداني هو عبارة عن استجوابات سريعة قامت بها مجموعة «الفلسفة في الزنقة» ارتأينا أنها تدخل في صميم ما نُسائله هنا.

المتعلم ووضع خطة للعمل والحياة:

سنحاول رصد بعض الإشارات المتعلقة بتمثلات المتعلم، باعتباره الحلقة الأكثر ارتباطا بالعادة الثانية في الهرم التعليمي هنا. ذلك أن تطور المعرفة لدى الإنسان ليس نتيجة للنشاط فقط، ولكن كذلك نتيجة لتحديد الوظيفة الرمزية؛ فالمعلومات والمفاهيم التي يكونها التلميذ لا تأتي عبر الدروس المستهدفة داخل الفصل فقط، وإنما كذلك من نشاطه الذهني والتمثيلي، وفهم الموضوع هو في حد ذاته إعادة تمثل؛ أي أن التمثل يقدم هنا كوسيط بين الموضوع والشيء، وذلك انسجاما مع التأويلات التي يتيحها الموضوع وما يحيط به، والذي يوفر إمكانيات التفكير في الشيء والأشخاص والحادثة التي وقعت، أو المفهوم. كما عبر بياجي في بنيويته التكوينية أثناء حديثه عن التمثلات[٣].

إن هذا الاقتراب تقتضيه قناعتنا المعتمدة ما أمكن على الممارسة الميدانية، أكثر من انطلاقها من نظريات جاهزة للتطبيق، وهو عيب آخر لبحوثاتنا التربوية بل وحتى الاجتماعية والثقافية، كما يقول عبد الله حمودي الذي يرى في أحد حواراته أن الإشكال اليوم، أنك لا تستطيع أن تجد ولو خمسة كتب لمفكرين عاشوا ولو لستة أشهر مع الفلاحين... (مثلا). فارتباط المثقفين والنخب التي تدعي العقلانية كان ارتباطا نظريا، ولم يكن ارتباطا يمس المعيش اليومي والمعرفة القريبة، ولم يكن ارتباطا بالمعنى العلمي الذي يجعل الباحث ينصت لنبض المجتمع، ويعرف عن قرب المفاهيم والنظرة التي يفسر بها الأشخاص حياتهم»[٤].

وزعنا استمارات بنيناها انطلاقا من العادة الثانية على عينات مختلفة من تلاميذ التعليم الثانوي الإعدادي والثانوي التأهيلي. وذلك كالآتي: ٤٠ تلميذا وتلميذة من مستوى السنة الثانية الثانوية شعبة العلوم الرياضية. ٣١ متعلما من مستوى السنة الأولى باكالوريا علوم تجريبية. ثم ٣٤ من مستوى الجذع المشترك العلمي، كلهم نشرف على تأطيرهم وتدريسهم أحيانا، وينتمون لتعليم خصوصي لمدرسة ذات مشروع تربوي محدد. تكونت الأسئلة من حوالي ١٦ سؤالا بين الموضوعي وأسئلة الرأي. ستركز على أهم النتائج والخلاصات بما يسمح لنا المقام هنا، وتجنبا للإغراق في الجانب الإحصائي العلمي الذي لن يكون دقيقا كل الدقة نظرا لغياب مقياس التكرار والتجميع والتحويل، وبما أن همنا هو مقاربة وضع ومساءلته عن قرب أكثر من فحصه في بحث نتركه لمجال آخر. نعرض أهم الأسئلة وأهم النتائج: بالنسبة إلى كل مجموعة.

> لو ساهم كل منا انطلاقا من موقعه ومن غيرته، لابتدأ التغيير الذي ندعو إليه بعيدا عن الاستعجال واستعجال الاستعجال

بالنسبة إلى المجموعة الأولى المكونة من ٤٠ متعلما من شعبة العلوم الرياضية للسنة الثانية باكالوريا، فقد أسفرت أهم النتائج على ما يلي:

السؤال ١ – هل أنت راض عن الطريقة التي تَدْرُس بها؟ ٢٤ فردا أجابوا بنعم، و١٢ بلا، و٣ بلا أدري. وانصبت التعليلات حول: - طرائق تعتمد على العروض عوض التلقين- شرح جيد – دروس مطبوعة تعفينا من الكتابة. إلا أن تبريرات الجانب السلبي كانت أكثر، حيث تركزت الأجوبة على: طول المقررات – الاعتماد على الحفظ بدل الفهم – عدم إبداء الرأي الشخصي – الاقتصار على النقط بدل المعرفة. وهذا يظهر بعض التناقض بين الرأي والتعليل. السؤال الثاني كان هو: هل تضع خطة لدراستك؟ يوميا: ١٧. أسبوعيا: ١٤. لا أفعل: ٨. وبالنسبة إلى سؤال: ما هدفك من الدراسة؟ كانت خلاصات الأجوبة: - النجاح والحصول على معدلات عليا في الباكالوريا – الحصول على أعلى النقط والشهادات- العيش الكريم – أطباء – مهندسون – دكاترة – مستوى معرفي لائق – اكتشاف علاجات لأمراض منتشرة. في السؤال الموالي طلبنا المادة العلمية التي ترتاح لها مع التعليل، الأغلبية ركزت فيها على مادة الفيزياء بتعليل أن الأستاذ جيد. ثم الرياضيات وعلوم الأرض والحياة.

٣- لمزيد من التفصيل انظر الفصل الثالث من كتاب. ديداكتيك التربية الإسلامية من الإبستيمولوجي إلى البيداغوجي، عمل مشترك لكل من أحمد العمراوي وخالد البقالي القاسمي، دار الثقافة، البيضاء، ١٩٩٩

٤- عبد الله حمودي، مصير المجتمع المغربي، رؤية أنثروبولوجية لقضايا الثقافة والسياسة والدين والعنف، دفاتر وجهة نظر (٥)، من حوار أجراه معه توفيق بوعشرين ومحمد زرنين، الرباط،، ٢٠٠٤، ص: ١٧



وعن سؤال: ما هي رغبتك في الحياة؟ فقد كانت أهم خلاصات الأجوبة: الراحة المادية والمعنوية - الزواج وتكوين أسرة - الحصول على مناصب راقية - تحقيق الأحلام والطموحات - مساعدة الفقراء... من الأسئلة التي طرحناها كان: ما هو آخر كتاب قرأته؟ مع تلخيصه. لم تتجاوز الأجوبة ما هو مقرر من كتب في مادة الفرنسية في السنة السابقة مع استثناءين لروايتين بالإنجليزية. في السؤال ١٢ وهو يدخل مباشرة في ما نحن بصدده، أي العادة الثانية: تمكن من معرفة إلى أين تريد الوصول، فقد كان كالآتي: رتب ما يلي حسب الأهمية بالنسبة إليك: الأسرة - المال - العمل - السعادة - الصداقة - الدين - الذات - الدراسة. فقد أتى الدين في المرتبة الأولى، ثم الأسرة، ثم العمل، والسعادة في مرتبة واحدة. تلا ذلك الذات ثم الصداقة، واحتل المال الرتبة الثامنة بنسبة كبيرة. من الأسئلة التي طرحناها: هل تتخذ قراراتك بنفسك أم أنت تابع لرغبة الآباء؟ فكانت الخلاصة: نعم: ٣٩، ولا: ١. ولا أدري: ٠. خلصنا في النهاية إلى السؤال التالي: لو طلب منك وضع خطة من خمس نقاط لحياتك المستقبلية، فماذا ستكون الخطة؟ كانت الأجوبة متباينة يصعب حصرها في ترتيب منسجم وأهم عناصرها هي: الدراسة - العمل - أخذ رخصة السياقة - الزواج - الاعتناء بالأسرة خدمة الشعب - السفر عبر العالم....

> إذا لم تستطع المدرسة إتمام أو تغيير ما تقوم به الأسرة والمجتمع فستكون مجرد تابع يقول نعم

لن نطيل في خلاصات المجموعة الثانية المتعلقة بالسنة الأولى باكالوريا، فقد كانت نتائجها متقاربة مع تغيير في الترتيب وفي التعليل. ومع انتقادات للطرائق والمناهج أكثر. ثم مع امتناع بعض التلاميذ عن الجواب عن السؤال الأخير بدعوى أنه لا يمتلك خطة للحياة.

بالنسبة إلى تلاميذ الجذع المشترك، فقد ازدادت انتقاداتهم للبرامج التعليمية حيث أجاب أكثر من

الثلثين بعدم رضاهم عن المناهج والطرائق، معللين ذلك بالتعب والضغط الذي تخلّفه النقط والامتحانات. وفيما عدا ذلك، تشابهت أجوبتهم.

هل استطاع المتعلمون كتابة نص لحياتهم ولو نسبيا؟ هل تصوراتهم منسجمة ما رغباتهم؟ هل توفر لهم الأجواء الدراسية (الجيدة هنا بما أنهم في مؤسسة خاصة) ما يودون تحقيقه في الدراسة والعمل والمال وغيرها؟

نحن نخلق مستقبلنا الخاص ضمن رؤية ذهنية خاصة، «ومن خلال الخيال يمكننا تصور عوالم القدرات التي لم تبتكر بعد، والتي ما تزال كامنة بداخلنا. ومن خلال الوعي نستطيع الاتصال بالقوانين الكونية أو المبادئ باستخدام مهاراتنا الفردية ومجالات إسهاماتنا، وباستخدام خطوطنا الاسترشادية، والتي نستطيع تطويرها تطويرا فعالا... وإعادة كتابة نص حياتنا أو تغيير التصور الذهني يتعلق بإدخال بعض التعديلات على التصورات الذهنية الأساسية المتكونة لدينا بالفعل...»٥. إذا لم تستطع المدرسة إتمام أو تغيير ما تقوم به الأسرة والمجتمع فستكون مجرد تابع يقول نعم. وكل فرد لا يستطيع قول لا في وقتها، سيظل صاحب مشروع ناقص في الحياة أو بلا مشروع أصلا.

شنو الهدف من الحياة؟ وعلاش حنا عايشين؟ تجربة الفلسفة في الزنقة:

استعنا بتجربة أخرى، قام بها مجموعة من الشباب المغاربة ينتمون لجماعة غير رسمية هي ما يطلقون عليه: «اتحاد الطلبة من أجل تغيير النظام التعليمي» UECSE، ومما قامت به مؤخرا، فكرة /نشاط «الفلسفة في الزنقة»، حيث قام مجموعة من الشباب باستجواب مصور مع أناس التقوا بهم في الشارع للجواب عن سؤالين، هما: ما هدفك من الحياة؟ ولماذا تعيش؟ ويوجد عبر الرابط التالي:
https://www.youtube.com/user/uecse.

يعرض الشريط في ٤ دقائق آراء عينات مختلفة من الناس من مختلف الأعمار: أطفال وشباب وشيوخ هم حوالي: ١١ شخصا تتراوح أعمارهم بين ٦٠ سنة و١٠ سنوات، وأغلبهم شباب في العشرينيات من عمرهم. كانت أجوبتهم جد مثيرة للتساؤل، حيث لم يستطع أي منهم أن يحدد هدفا واضحا ينبني عن تصور ذهني

٥- ستيفن كوفي، مرجع مذكور، ص: ١٢٤





أين الخلل؟ إنه التربية عامة، والمدرسة على وجه الخصوص. مدرسة تخلق نموذج اللانموذج، تخلق أشخاصا أضاعوا البوصلة والطريق، لم يتعودوا إلا على ما عودوهم عليه.

كيف علينا أن نبني الشخص القادر على بناء ذاته، المنسجم مع تصوراته؟ أليست المعضلة الكبرى، ألا نستطيع تحديد هدفنا من الحياة وما نريده منها؟

التعليم التقليدي يعيق العبقرية ولا يدعمها. لذلك أدان أينشتاين الأساليب التربوية التي عاشها بقوله: «لقد كان على المرء أن يحشو عقله بكل هذه المواد، سواء أكان يحبها أم لا،... أما أن الطرق الحديثة لم تخنق حب الاستطلاع المقدس بعد فأمر يكاد يصل حد المعجزة. فهذه النبتة الصغيرة الطرية تحتاج أكثر ما تحتاج إلى الحرية فضلا عن الحوافز... ومن الخطأ القاتل أن تعتقد أن متعة القراءة والبحث يمكن أن تتعزز من خلال وسائل القهر والشعور بالواجب»٦.

واضح. والأجوبة التي ذكرها هؤلاء دارت حول النقاط التالية: نعيش لنعبد الله – نعيش لنموت ويحاسبنا الله (شيخ)- نعيش لنأكل ونشرب ونموت – نعيش لنربي أسرة – الهدف من الحياة لعب ولهو (طفلة في العاشرة من عمرها)- لا أعرف – لا هدف لي من الحياة (رجل يائس لا يظهر وجهه) – الهدف هو العمل، وأنا لم أشتغل منذ شهرين - الهدف هو تطوير وخدمة المجتمع (شاب عشريني قالها بتردد). وبغض النظر عن مدى علمية التعامل مع هذه المعطيات، إلا أنها تعطينا تصورا أوليا على نوع التفكير لدى المغاربة الذين قالت دراسات نفسية أن أزيد من ٥٠٪ منهم مصاب بمرض نفسي حسب تصريح أخير لوزير الصحة وحسب جمعيات لأطباء ومحللين نفسانيين.

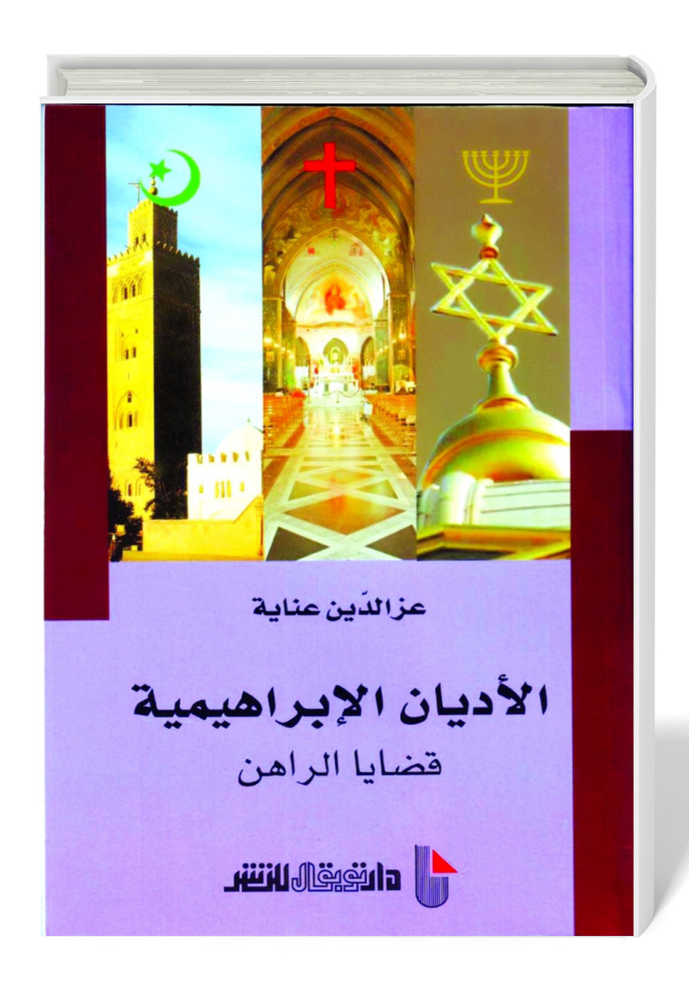
هل هي تربية القهر؟ هل هي تربية اللاموقف واللارأي؟ لم كل هذا التذمر من الوضع التربوي والتعليمي حاليا في بلداننا؟ هل ماتت المدرسة؟ لو ساهم كل منا انطلاقا من موقعه ومن غيرته، لابتدأ التغيير الذي ندعو إليه بعيدا عن الاستعجال واستعجال الاستعجال.

٦- دين كيت سايمنت، العبقرية والإبداع والقيادة، عالم المعرفة، العدد: ١٧٦، غشت ١٩٩٣، ص: ١٠٥





بقلم: نزار الفراوي
كاتب وإعلامي مغربي



يتناول الباحث التونسي عزالدين عناية في كتابه «الأديان الإبراهيمية.. قضايا الراهن» الصادر عام ٢٠١٤ عن «دار توبقال للنشر» بالدار البيضاء (المغرب)، جوانب حساسة وحيوية في العلاقة بين الأديان الثلاثة، الإسلام والمسيحية واليهودية، سواء على الصعيد اللاهوتي أو من زاوية تدبير التعايش بين مؤمني كل منها.

«الأديان الإبراهيمية.. قضايا الراهن»

لعز الدين عناية

بحثا عن إمكانيات للتعايش في ساحة متوترة

الناشر: دار توبقال للنشر - الدار البيضاء
الطبعة الأولى ٢٠١٤،
١٥٥ صفحة من الحجم المتوسط.





ويعكس الكتاب سعة أفق الباحث الذي يستدعي تطور العلاقة بين الديانات الثلاث في مسارها التاريخي ومرجعيتها داخل النصوص الدينية المؤسسة، وتطبيقاتها في الماضي والحاضر، خصوصا في الساحة الأوروبية التي انفتحت بقوة على العنصر الإسلامي من خلال الهجرات المكثفة، مع استحضار لتجارب بعينها في سياسة استيعاب الآخر، كما هو الحال في إيطاليا وإسبانيا.

وهو من هذا المنظور، إسهام شديد الراهنية في زمن طافح بالتوتر يسمه تنامي الاحتكاك بين مجموعات إنسانية تصهرها العولمة والحدود المفتوحة داخل فضاء احتكاك ثقافي وعقائدي محتدم، يدفع بمستقبل العلاقات بين الكتل الحضارية الكبرى في اتجاهين يرجح كفة أحدهما على الآخر نهج تدبير هذا «الصدام»: اغتناء متبادل بالتنوع الثقافي وتعلم العيش مع الآخر وبه، أو ركوب سبيل التدافع السلبي في اتجاه السيطرة وحرب النفوذ.

وينطلق الكاتب من أن الأديان الإبراهيمية لم يتسن لها حتى العصر الراهن رسم خطة مشتركة للتعايش والاحتضان بين بعضها البعض، خطة تتواضع بمقتضاها على حضور أتباع الدين الآخر بين ظهرانيها، دون أن يلحقهم أذى أو ترهقهم ذلة. والحال أن الكاتب يشدد على وجود قواسم مشتركة وتقارب عقائدي يجمع بين اليهودية والمسيحية والإسلام. لذلك، يكون التحدي الذي يرتسم أمام معتنقي الديانات الثلاث هو «كي تعيش تلك الأديان شراكة الأوطان؟».

يعكس الكتاب سعة أفق الباحث الذي يستدعي تطور العلاقة بين الديانات الثلاث في مسارها التاريخي ومرجعيتها داخل النصوص الدينية المؤسسة

الكتاب إذن، أكثر من مجرد دعوة أخلاقية لفضائل الحوار، حديث عن الأديان حين تنزل معترك الاجتماع، وحين يتحكم بعضها بمصائر بعض، وحين تفرض القضايا الكلية التي تسائل الإنسانية اليوم تضافر جهود مختلف المجتمعات، في وقت يلاحظ الباحث أن التشريعات المدنية غالبا ما توفق في التأقلم مع التحديات، بينما تتعثر الديانات الإبراهيمية عن مواكبتها، في وقت يفترض فيه أن تكون الأقدر والأجدر لما بينها من رؤى أنطولوجية جامعة.

يتوقف الكاتب عند مبدأ التعارف الذي أقره الإسلام، والذي تجسد في ضمانة الحرية والكرامة للأفراد والجماعات غير المسلمة بما فاق فيه غيره. لذلك، مثل خروج كثيرين من أتباع الكنائس الشرقية من السيطرة المسيحية إلى كنف الحكم الإسلامي، تحولا من الضيق إلى السعة في أوضاعهم، ارتفع معه سقف الحرية الدينية، بما لم يشهدوا له مثيلا في سابق عهدهم.

ويذكر عز الدين عناية بأن مبدأ الاستيعاب، الضامن للتنوع، كان فاعلا في علاقة المسيحية العربية بالإسلام المبكر، فلا يمكن الحديث عن مواجهة كبرى بين المسلمين والمسيحيين العرب مثيلة لمواجهتهم مع قريش ومع اليهود، بل لعل بقاء العديد من الملل داخل العالم العربي هو جراء سريان ذلك المبدأ الاجتماعي. والملفت في الموقف القرآني، أنه رغم إقراره بما عليه الآخر من زيغ وانحراف وافتراء وفساد وإخفاء وتعطيل للأحكام وإلباس للحق بالباطل، سمح بتواجده داخل الفضاء الاجتماعي. الأمر الذي لم تتلاش معه تلك الجماعات، بل شهدت تطورات في المجالين الديني والدنيوي. فبدون ذلك التبادل الثقافي مع الإسلام، يضيف الكاتب، ما كان لليهودية أن تنتج كثيرا من العلماء والأطباء ورجال الدولة، بل مع تراجع الإسلام، في القرن ١٢ شهدت القوة الخلاقة لليهودية انكماشا أيضا، كما يشهد على ذلك باحث غربي هو أمريكو كاسترو.

وينبه الكتاب إلى أن المسلم ليس مالك زمام الفضاء الاجتماعي والمقرر الأوحد فيه دون رادع أو ضابط، بل هو شريك وراع وضامن للتعايش المتنوع فيه. ولكنه يعترف، في ما يشبه نقدا ذاتيا للتجربة الإسلامية، بأن هذا المبدأ الوارد في القرآن الكريم، والذي يجد دعامته في السنة الصحيحة أيضا، لم تكن ترجمته على الشاكلة نفسها عبر محطات التاريخ الإسلامي المختلفة، إذ تنوعت التنزيلات بتبدل الأزمان والأمصار.

وينتقل الباحث بعدئذ إلى رصد المواقف المتعلقة بالإسلام داخل التربة الأوروبية. فالحال أن ثمة موقفاً شائعاً في الأوساط الغربية عن الفتوحات الإسلامية أنها غزو بالسيف لا غير، وأن أسلمة شعوب المغرب والمشرق تمت غصبا وقهرا، في حين تعوز الدعامات التاريخية تلك القراءة، حسب الكاتب الذي يرى أن الجزية كانت أكثر نفعا للدين الجديد من الاهتداء إليه. كما أن هناك –



يضيف الكاتب- جانبا مرجعيا متأصلا في استيعاب الآخر، تعضده تجربة تاريخية وفقت في العديد من المناسبات وخابت في غيرها. فبعض الإلزامات الفقهية للآخر الديني ليست نابعة من جوهر الدين بل تأتت جراء إملاءات اجتماعية، إذ لم يبلغ الفقيه حق الآخر الديني في التواجد بل عمل على تقليص هامش حريته.

في المقابل، تسود في اليهودية نظرة استبعاد تخرج بني إسماعيل من رمزية حيازة ميراث أبيهم إبراهيم، وإن كان بعض الدارسين اليهود يجنحون إلى استيعاب الإسلام والمسيحية. وعلى غرار الانغلاق الذي ألم باليهودية، حصل ما يشبه ذلك في الدين المسيحي، بدمج الإسلام في عداد الهرطقة، إذ انحصر الدين المسيحي خلف سياجه اللاهوتي، ولم ينظر للدين الجديد كتطور وتجديد داخل مسار الديانات الابراهيمية.

اللاهوت المسيحي في الراهن حاول، وفق الكتاب، إيجاد موضع للآخر في ما يعرف بلاهوت الأديان، غير أن غياب التجربة التاريخية السابقة وشح الأطر التشريعية لا يسعفانه بمراده، لذلك ما فتئ مترنحا بين نظرة مغلقة وأخرى تبحث عن التأسيس والانفتاح.

ويعود الكاتب إلى تجربة الأندلس، ليلاحظ أن الإسلام قدم تجربة تعايش ناجحة بين الأديان الثلاثة، أتاح فيها لدينين كتابيين الحضور والنشاط. كانت فيها عملية التوازن الديني والاجتماعي من إنتاج الإسلام وبرعايته، باعتباره الدين المهيمن. غير أن التاريخ لم يسعف الإنسانية حتى الآن بتجربة مماثلة في مستوى ألق تلك التجربة.

يسجل عز الدين عناية أن الكلام كان في أوقات الصحو يتكرر باعتداد عن القيم الغربية بصفتها كونية ومقبولة من الجميع، لكن حين اشتدت الأزمات بالداخل علا خطاب عن تهدد تلك القيم من قبل نظيرتها الدخيلة. وفي الحقيقة، لم تبلغ الحدة مستوى التصادم أو التهديد القيمي فوق الأراضي الغربية، وكل ما في الأمر أن هناك اختلالا داخل المجتمع يقع فيه الأجنبي عامة، والمسلم منه خاصة، ضمن معادلات الطرف المستضعف. لذلك يجري الحديث عن التهديد الحاصل من قبل المسلمين لهوية الغرب المسيحية اليهودية، ولا يتم التطرق إلى مساهمة هؤلاء في بناء الغرب، أو في إضفاء مسحة تشبيب عليه، حيث يتعالى الحديث عن أخذهم ولا يقع التطرق لعطائهم.

وفي سياق نقد ذاتي، يلاحظ الباحث التونسي أن الوجود الإسلامي في الغرب لايزال يفتقد إلى طليعة مثقفة متجانسة نابعة من الجموع المسلمة، ولذلك يأتي الحوار الحضاري بين المجتمعات المسلمة والمجتمعات الغربية في مجمله بشكل صامت أكثر من حديث ناطق، مما فاقم من الضبابية وسوء الفهم بين الطرفين.

ويرى الكاتب الذي وسع نطاق بحثه، ليشمل التجربة الإيطالية والتجربة الإسبانية في تدبير العلاقة مع الإسلام والمسلمين، أن حضور المسلم اليوم في البلدان الأوروبية لا يشكل تحديا للفلسفة الاجتماعية المستندة الى العلمانية، ولكن يشمل بالفعل تحديا للطروحات اليمينية الإقصائية وللمرجعية الدينية المنغلقة، سواء أكانت كاثوليكية أم بروتستانتية أم غيرها.

> يلاحظ الباحث التونسي أن الوجود الإسلامي في الغرب لايزال يفتقد إلى طليعة مثقفة متجانسة نابعة من الجموع المسلمة

ومن خضم التدافع بين الأديان الثلاثة في الساحة الغربية، مرة في اتجاه تفاعلي إيجابي، وأخرى على صعيد تصادمي، يقرأ عناية في التاريخ المعاصر إعادة صنع للهوية الأوروبية، حتى وإن تواصلت هيمنة الطابع المسيحي على الوجه الاجتماعي العام في العديد من الدول، وهو ما فرضته تحولات ديمغرافية جراء الهجرات المتنوعة، يلعب المسلمون فيها دورا أساسيا، وإن ظل العقل الكاثوليكي عاجزا عن استيعاب هذه التحولات.

جدير بالذكر أن عزالدين عناية أستاذ جامعي متخصص في علم الأديان. نشر مجموعة من الأعمال من أبرزها: «الاستهواد العربي في مقاربة التراث العبري»، عن منشورات الجمل بألمانيا، و«نحن والمسيحية في العالم العربي وفي العالم»، عن دار توبقال بالمغرب، و«العقل الإسلامي»، عن دار الطليعة بيروت. كما قدم ترجمات مهمة لكتب من قبيل «علم الأديان» للفرنسي ميشال مسلان، لبنان؛ «علم الاجتماع الديني» للإيطالي إنزو باتشي، الإمارات العربية؛ «السوق الدينية في الغرب» لمجموعة من الباحثين الأمريكان، سورية.



يمكن للقارئ أن يتعرف على تفاصيل أوفى عن كل هذه الإصدارات وغيرها من إصدارات المؤسسة، بالإضافة إلى التعرف على مراكز البيع والمكتبات التي تبيع جميع إصدارات المؤسسة عبر ربوع الوطن العربي عبر الولوج لموقع مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث» الخاص بالكتب على الرابط الرسمي التالي:
book.mominoun.com

أثر المعتزلة في الفكر الإسلامي الحديث



صدر عن «المركز الثقافي العربي» وضمن سلسلة منشورات مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»، كتاب للباحث التونسي المتخصص في الفكر الإسلامي عمار بنحمودة، وهو عبارة عن بحث كان المؤلف قد نال به شهادة الماجستير في الحضارة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمدينة صفاقس التونسية.

يسعى الكتاب إلى البحث عن أثر المعتزلة في الفكر الإسلامي الحديث، كون الفكر المعتزلي فكرا تراثيا قديم النشأة، نشأ في إطار علم الكلام، وكان هاجسه الدفاع عن عقائد الملة تجاه من كانوا يهددون كيانه في الداخل والخارج، خصوصا وأنه نشأ في فترة سياسية عصيبة من التاريخ العربي الإسلامي، وبالضبط ذاك الواقع الذي عاشته الدولة الإسلامية زمن حكم الأمويين، منبثقا في الأساس من مواقف دينية عدة، أبرزها موقف الخوارج «المتشددين» وموقف المرتجئة «المتساهل».

ويرى المؤلف التونسي في كتابه أن «نشوء فكر المعتزلة كان متورطاً في شواغل عصره حد النخاع، فتَفَاعَلَ معها. وبتفاعلها مع الواقع، تطورت مقولات المعتزلة، وتفرعت، فتنوعت وعبرت عن اختلافات محمودة في قضايا دينية متشعبة، كان لها أثرها في الخاصة والعامة على حد سواء. ولم يكن الواقع لوحده محرك هذا الفكر، بل كان الجدل المذهبي محركاً آخر أسهم في تأكيد الاختلاف بين الفرق الإسلامية التي تطمح في مشروعها «الثيولوجي» إلى أن تستأثر لوحدها بالجنة، وفي مشروعها الفكري والسياسي إلى أن تهيمن وتحكم».

ويقدم المؤلف من خلال كتابه الذي يقع في



٢٧٠ صفحة من الحجم المتوسط، طرحا شافيا عن المذهب المعتزلي من خلال ثلاثة أبواب رئيسة، يبدأها بـ «تاريخ المعتزلة» الذي يتطرق فيه إلى فصول تهم «مقدمات تاريخية»، و»إسهام الهنود المسلمين في إحياء تراث المعتزلة»، و»إسهام المستشرقين في جهود إحياء المعتزلة»، ثم الباب الثاني حول «أثر الاستشراق وفكر النهضة في مواقف محمد عمارة»، متضمنا فصلا عن «أثر التيار الاستشراقي»، وفصلا عن «أثر رواد الإصلاح والتجديد»، وفصلا عن «قراءة هرمينوطيقية لأثر الأفغاني وعبده في تلقي عمارة لفكر المعتزلة»، في ما يأتي الباب الثالث حول «أثر المعتزلة في فكر محمد عمارة» متضمنا في فصوله «الآثار الدينية» و»الأثر القيمي»، ثم «قراءات في خطاب المعتزلة الجدد».

ولعل أبرز سؤال ينطلق منه الباحث في مؤلفه للوصول إلى عمق الإجابة عن أثر المعتزلة هو «كيف يمكن لجدل قام في أزمنة مضت، واتصل بقضايا العصر الذي نشأت فيه أن يتحول إلى عصر لا ثبات فيه، تنقلب فيه العقلانية على ذاتها كل يوم نقداً وتجديداً وفي إطار نظام عالمي تباينت فيه الفوارق السياسية والاقتصادية بين الشمال والجنوب؟».

والباحث التونسي عمّار بنحمّودة باحث تونسي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، حاصل على الماجستير في اللغة والآداب والحضارة الإسلامية، وبصدد إنجاز رسالة دكتوراه، ينتمي إلى وحدة البحث في المتخيّل، له مجموعة من البحوث والمقالات.

أسباب النزول



يقف الباحث التونسي بسام الجمل في كتابه «أسباب النزول.. علما من علوم القرآن» على عقبات عديدة في مجال بحث أسباب النزول في القرآن، في أبعاده النظرية والعلمية، وهي ذات العقبات التي تشكل للباحثين حرجا في نقد منظومة العلوم الكلاسيكية من تفسير وحديث وعلم كلام وأصول فقه وفقه، دون الانخراط في الصراعات التي تتعلق بها، لكن المؤلف يرتحل مع هذا الموضوع بجمعه وتحليله المواد المتوفرة لذلك، ومقارنة عناصرها مع ما أثبتته المصادر في السيرة والتاريخ.

ويخلص الكاتب إلى استنتاجات ثمينة تتمثل في كون تسعة أعشار آيات المصحف لا تتوفر عنها أسباب معينة، وأن ثمانين بالمائة من الأسباب تتعلق بآيات الأخبار لا بآيات الأحكام. وأيضا أن هذا المنهج الذي طغى على توظيف هذه الأسباب هو منهج تبريري لاختيارات الفقهاء المتأخرة عن زمن النزول وفق بسام بين الأسباب التي تشتمل على تناقض واضح من جهة وإقصاء من جهة أخرى للفرق والمذاهب ما بعد عصر النبوة.

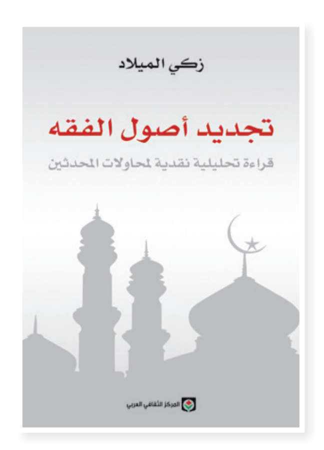
ويرى الباحث في مؤلفه الصادر عن «المركز الثقافي العربي»، ضمن منشورات مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»، والواقع في ٥٠٠ صفحة من الحجم المتوسط، أنه و»بعد التمحيص الدقيق يتبين أن أسباب النزول لا تكفي في تبين كل ما يسعى إلى معرفته الباحث بدقة في النص القرآني، مما يوضح أن الآيات القرآنية هي التي يجب أن تحكم أسباب النزول لا العكس».



وتنقسم مضامين مؤلف بسام الجمل الجديد إلى خمسة أبواب رئيسة، بدءا بـ «علم أسباب النزول منزلة ونشأة ومدونة»، ثم «أخبار أسباب النزول بنيتها وصناعتها»، و«أثر أسباب النزول في علوم القرآن»، و«المتخيل والتاريخي في أخبار أسباب النزول»، ثم أخيرا «علوم القرآن في الإبستيمية المعاصرة: أي أفق لتحديثها؟».

والباحث التونسي بسام الجمل باحث وكاتب تونسي حاصل على الدكتوراه في الآداب واللغة العربيّة، من جامعة منوبة التونسية، يشغل أستاذا مساعدا بكلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس. له مجموعة من الأعمال المنشورة من بينها كتاب «الإسلام السنّيّ» الذي صدر عن دار الطليعة ورابطة العقلانيّين العرب، وكتاب ليلة القدر في المتخيّل الإسلاميّ، ويشرف بسام الجمل على التحكيم العلمي لبحوث قسم الموروث الديني بمؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.

تجديد أصول الفقه



ينبه كتاب «تجديد أصول الفقه.. دراسة تحليلية نقدية لمحاولات المعاصرين» لمؤلفه الباحث السعودي زكي الميلاد، على ضرورة استعادة العلاقة بين الفكر الإسلامي وأصول الفقه، وتفعيل هذه العلاقة وتنميتها، لتكون أصول الفقه منهجا وخبرة ومعرفة حاضرا وفاعلا ومؤثرا في ساحة الفكر الإسلامي.

ويقول المؤلف زكي الميلاد، إن كتابه ليس دراسة عن أصول الفقه علما، وإنما عن أصول الفقه فكرا، وهذا ما نحتاجه فعلا، حسب المؤلف، إذ إن الدراسات في أصول الفقه كثيرة، وهي التي استحوذت على الاهتمام قديما وحديثا، في حين أن الدراسات التي تتحدث عن أصول الفقه قليلة ومتفرقة، لكنها تزايدت وأخذت وتيرة متصاعدة في فترة ما بعد ثمانينيات القرن الماضي.

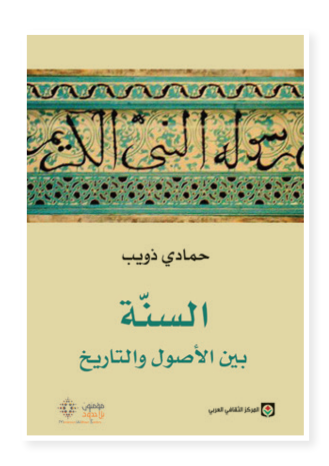
ويحاول المؤلف السعودي في كتابه الصادر ضمن منشورات مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»، عن «المركز الثقافي العربي»، والذي يقع في حوالي ٢٧٠ صفحة من الحجم المتوسط، أن تكون دراسته قدر الإمكان من نمط الدراسات الجديدة والحديثة، وأن تكشف عن الاتجاهات الجديدة في ساحة أصول الفقه، وتقدم جديدا في هذا المجال.

ويضم الكتاب ثمانية فصول، يتناول الفصل الأول منها «تطور الفكر العلمي لأصول الفقه مع السيد محمد باقر الصدر»، من خلال البحث في أصول الفقه وكتابة التاريخ، وأصول الفقه بين العلم والتاريخ، وأصول الفقه والحاجة التاريخية، وأصول الفقه عبر المراحل والعصور، ثم أصول الفقه ومصادر الإلهام، وفي الفصل الثاني يتحدث

الكاتب عن «التجديد المنهجي لأصول الفقه لدى السيد محمد باقر الصدر»، ويكشف عن التجربة الأصولية والمنحى التجديدي لديه، قبل أن ينتقل في الفصل الثالث إلى تقديم «قراءة في نظرية السيد محمد باقر الصدر حول أصول الفقه والفلسفة»، ويُخصص الفصل الرابع لتقديم «قراءة في نظرية الشيخ مصطفى عبد الرازق في أصول الفقه والفلسفة»، عبر استعراض العناصر المكونات الأساسية لنظريته، ويتناول الفصل الخامس «النقد المنهجي لأصول الفقه لدى الشيخ محمد مهدي شمس الدين». أما في الفصل السادس، والسابع والثامن، فيتناول الكاتب «أصول الفقه ومسألة المنهج»، و«الإجماع في أصول الفقه من الشورى إلى النظام النيابي»، و«أصول الفقه وتطور فكر العقلانية في المجال الإسلامي».

وزكي الميلاد، باحث وكاتب سعودي متخصص في الدراسات الإسلامية، كاتب وباحث في الفكر الإسلامي والإسلاميات المعاصرة. رئيس تحرير مجلة «الكلمة» الفصلية الفكرية التي تصدر من بيروت. حصل من الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية على لقب دكتوراه إبداع على مجموع المؤلفات والأبحاث والكتابات والأعمال الفكرية، كما قدم الأستاذ زكي الميلاد الكثير من الاستشارات العلمية والبحثية لكتاب وباحثين وطلبة الماجستير والدكتوراه من دول عربية عدة؛ وله عدة مقالات ودراسات وأبحاث منشورة.

السنة بين الأصول والتاريخ

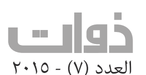


صدر ضمن سلسلة منشورات مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»، عن «المركز الثقافي العربي» للباحث التونسي حمادي ذويب كتاب بعنوان «السنة بين الأصول والتاريخ» يقارب نموذج الكتابة الثنائية القائمة بين منزلة السنة ضمن المدونة الأصولية وصلتها بالسياق التاريخي. من خلال الكتاب نفسه، يرى المؤلف في دعواه الأساسية أن السنة «فكر بشري اجتهادي لا وحي منزل من السماء».

ويقوم حمادي ذويب في كتابه على دراسة المسلمة التي تقوم على «تأسيس حجية السنة بوصفها أصلا ثانيا من أصول الفقه»، مبينا أن هذا التأسيس إنما هو «فعل تاريخي إنساني جاء كرد فعل على ظواهر شهدها القرن الثاني هددت الحديث النبوي وفئة أهل الحديث التي تؤسس عليه أيديولوجيتها»، كما يذهب الباحث التونسي إلى القول بأن «المنظومة الأصولية أصبحت في عصرنا الحديث متكلسة وجامدة المعاني والقيم، لا تتطابق أحكامها مع الواقع الموضوعي المتجدد، لأنها فقدت صلتها بالتاريخ وأصبحت عاجزة على رفع تحدياته ومواكبة جديدة».

ويتوسع الكاتب الذي يقع في ٣٥٠ صفحة من الحجم المتوسط، في التأسيس لرؤيته للسنة، من خلال ثلاثة أبواب رئيسة، تبدأ بـ «تاريخية مفهوم السنة»، قبل أن يمر للباب الثاني الذي يتحدث عن حجية السنة في التاريخ ثم الباب الثالث الذي يدخل في العلاقة بين «القرآن والسنة».

ويضيف المؤلف في مستهل كتابه أن «نقد المنظومة التقليدية التي تأسست عليها العلوم الدينية



لا يعني القطيعة مع التراث والتنكر له، بل هو دعوة إلى التوسل في دراسته بالمتاح العلمي في هذا العصر، حتى يتسنى لنا فهمه وكشف آليات اشتغاله والقراءة الحية لمنتجاته».

والباحث حمادي ذويب باحث وكاتب تونسي، يشغل أستاذاً محاضرا بكليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة في صفاقس تونس، اختصاص الحضارة القديمة. يشرف على وحدة بحث الأديان والحضارات بنفس الكليّة. ويعد الكاتب حمادي الذويب من أبرز المختصّين في العالم العربيّ في ميدان أصول الفقه. صدر له بالإضافة إلى الكتاب المذكور، كتاب «جدل الأصول والواقع»، وكتاب «مراجعة الإجماع بين النظرية والتطبيق».



لمعرفة المزيد يرجى زيارة موقع مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث
www.mominoun.com

٨٨٪ من مستخدمي الإنترنت يستعملون شبكات التواصل الاجتماعي

أكدت مجموعة من الدراسات والأبحاث على دور مواقع التواصل الاجتماعي عبر شبكة الإنترنت، والتي باتت تتزايد بشكل ملفت للنظر، في المساهمة في إعادة صناعة المجتمعات وصياغتها بسبب تأثير مثل هذه المواقع على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لهذه المجتمعات.

مواقع التواصل عادات واهتمامات

كشف التقرير السنوي لشركة «ديجيتال ميديا ساينس» المتخصصة في بحوث الإعلام الرقمي والذكاء الصناعي بمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، عن اتجاهات وعادات مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي على الإنترنت، وتضمن التقرير النتائج الجديدة للدراسات التي تم إجراؤها على ٤٢٪ من سكان منطقة الشرق الأوسط، وشمال أفريقيا، ممن لديهم اتصال بالإنترنت. وأظهرت الدراسات أن ٨٨٪ من مستخدمي الأنترنت يستعملون شبكات التواصل الاجتماعي بمعدل ١٠ مليون تغريدة على موقع «تويتر»، و٩٤٪ منهم يستخدمون موقع «فيسبوك»، وخلصت الشركة في تقريرها من خلال تحليل أشمل لبيانات عن ديمغرافية السكان في المنطقة، إلى أن أعمار رواد هذه المواقع ما بين **١٨ و٢٥** سنة.

وأشارت النتائج الجديدة بخصوص اتجاهات وعادات مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي من بين مستخدمي الإنترنت بمصر،

إلى أن غالبية المستخدمين يقضون ما يتراوح بين ٣ إلى٧ ساعات يوميا على الشبكة، مما يسهم في زيادة معدل التجارة الإلكترونية. وركز التقرير على أكثر الموضوعات التي تم البحث عنها عبر الشبكة، وتتبع اتجاهات المستخدمين التي أظهرت أن أعلى فئات البحث بالترتيب تمثلت في الوظائف، والرياضة، والسفر، والغذاء، والأخبار.

وكشفت الدراسة من خلال بحث أجرته على موقع «يوتيوب»، أن هناك نحو ٢٥٨ مليون مشاهدة يومية على «يوتيوب» في منطقة الشرق الأوسط، وأن فئات المشاهدات بمصر شملت ١٧٪ للسياسة والأخبار، و١٩٪ للتسلية والترفيه، و٢٩٪ للموسيقى، بالإضافة إلى أن ٦٤٪ من مستخدمي الشبكات الاجتماعية في مصر تأثروا بأصدقائهم في مشاهدة محتوى المواد الترفيهية.

النساء أكثر رواد مواقع التواصل

كشفت دراسة حديثة أنجزتها مؤسسة أمريكية متخصصة في إدارة وتأسيس مشاريع الأنترنت أن معدل تفاعل السيدات على شبكات التواصل الاجتماعي يتفوق على الرجال، وذلك من خلال تبادل الصور والأخبار والتفاعل مع العلامات التجارية. وأوضحت الدراسة حول النشاط على موقع «فيسبوك» خلال السنة المنصرمة، بأن النساء يتفوقن على الرجال في نسب نشاطهن على الموقع الاجتماعي، مُشيرة إلى أن نسبة النساء النشيطات على الموقع الأزرق يناهز **الـ٧٦٪،** مقابل **٦٦٪** لدى الرجال.

وحسب المصدر نفسه، فإنه على مستوى موقع «أنستغرام» الاجتماعي المتخصص في الصور، تتفاعل **٢٠٪** من السيدات اللواتي يتفاعلن بشكل كبير مقارنة مع **١٥٪** من الرجال. وعلى المستوى الاقتصادي، أشارت الدراسة إلى أن **٥٤٪** من السيدات يظهرن على شبكات التواصل الاجتماعي الدعم للعلامات التجارية، بينما ٥٣٪ منهن يقبلن العروض التسويقية عبر شبكات التواصل الاجتماعي.

مواقع التواصل سبيل جديد للبحث عن العمل

وكشف موقع العمل الحر «Elance.com»، أن ٤٠٪ من رواد وسائل التواصل الاجتماعي، يستخدمونه في الحصول على فرص عمل، كما أظهرت دراسة لكلية «برايتون» لإدارة الأعمال أن من شركات التوظيف باتت تعتمد على شبكات التواصل الاجتماعي، كما كشفت دراسة أخرى أجراها موقع التوظيف الدولي «jobvite»، أن أفضل الشبكات الاجتماعية لأصحاب الأعمال في البحث عن الموظفين، هي «لينكد إن» بنسبة ٩٤٪، تلتها «فيسبوك» ٦٥٪، ثم «تويتر» ٥٥٪، ثم مواقع ومدونات الشركات نفسها ٢٠٪، و«جوجل بلوس» ١٨٪، وأخيرا يوتيوب بنسبة ١٥٪».

وعلى المستوى العربي، أفادت دراسة أجرتها مبادرة «اكتشف» الرقمية العربية المتخصصة في تنفيذ إحصائيات ورؤى صناعة التكنولوجيا الرقمية في دول الخليج، أن أصحاب الأعمال يوظفون الموهوبين عن طريق الإنترنت في ظل وجود أكثر من ٩٠٪ من الباحثين عن العمل.

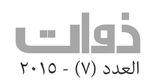
وأوضحت الدراسة أن ٤٥٪ من مقدمي الطلبات علموا عن الوظيفة عن طريق المواقع الإلكترونية الخاصة بالشركات، في حين تمثل الوظائف المعروضة على لوحات الإعلانات ٢٩٪ من طلبات التوظيف المعروضة، بينما تقدم ٥٪ من المتميزين عبر شبكات التواصل الاجتماعي.

فقدان الذاكرة الرقمية

كما أثبتت دراسة حديثة قام بها فريق من الباحثين لصالح موقع «بينكوراج» للأبحاث، أن ثلثي مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي يكذبون بشأن المعلومات والأخبار الشخصية عن حياتهم وذكرياتهم، لجعلها تبدو أكثر إثارة، محذرة مما أسمته «فقدان الذاكرة الرقمي».

وأشار البحث، بحسب ما ذكر موقع «سكاي نيوز عربية»، إلى أنه مع تزايد الكذب على هذه المواقع مع الوقت، يبدأ المستخدمون بتصديق رواياتهم، وتتلاشى حقيقة الأحداث التي كتبوا عنها، مما يصيبهم بفقدان الذاكرة الرقمي.

وأكدت، النتائج أن نحو **٦٨٪** من المشاركين، إما يبالغون أو يكذبون بشكل فادح حين يروون حدثًا من حياتهم على أحد مواقع التواصل الاجتماعي كـ«فيسبوك»، واعترف واحد من كل عشرة مشاركين في البحث، أن ذكرياتهم عن الحدث الذي كتبوا عنه تشوهت بالفعل. وأضافت أن الجيل الأصغر سنًا هو الأكثر عرضة للخطورة لفقدان الذاكرة الرقمي، حيث اعترف **١٦٪** ممن تتراوح أعمارهم بين **١٨** إلى **٢٤** عامًا أن ذكرياتهم تشوهت بالكامل.



ترقبوا

في العدد القادم

«الترجمة في العالم العربي ... أي جسر لحوار الثقافات؟!»

